هذه الرواية

# بُستان السيّدة

رواية

عبد القادر الشاوي

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
scanned by
jamal hatmal

ÉDITIONS
LE FENNEC
دار الفنك للنشر

عبد القادر الشاوي

# بُستان السيّدة

## غريب هذا الحلم، أليس كذلك ؟
## كما قالت

رواية

ÉDITIONS
LE FENNEC
دار الفنك للنشر

## صدر للكاتب عن دار الفنك

دليل العنفوان، رواية، 1989.

الساحة الشرفية، رواية، 1999.

إشكالية الرؤية السردية، دراسة، 2002.

دليل المدى، رواية، 2003.

مَنْ قَالَ أَنا، رواية، 2006.

كتاب الذاكرة، دراسة، 2015.

# كيف أن الانتحار يكون نهاية

حسبتُ دوما أن المنتحر يملك من الأسباب ما لا يملكه غيره حين تحمله حملا على القيام بفعل لا يمكن أن يقدر عليه سواه. وكنت أعرف من خلال الروايات المتواترة التي سمعتها من الكبار أن المنتحر لا يبوح بأسبابه الداعية رغم كثرة الرسائل التي تركها المنتحرون، قدامهم ووراءهم، لمن سيقوم بعد حين بقراءتها على سبيل الاحتمال والتقدير، أو تأويلها حسب الهوى والتعليل ...ودائما، في الواقع، على الوجه السلبي، وعلى الوجه الإيجابي عند الاقتضاء. وشاع كثيرا بين الناس أن المنتحر إذا كان راشدا فإنه لا يكون بفعله إلا ناقما ومحتجا. فهذا الشاعر اللبناني خليل حاوي الذي لم تعد الحداثة الشعرية تشير إليه، أو لا تشير إليه إلا لماما، خرج إلى الساحة العمومية بعد أن أنذر قومه بذلك عقب الاجتياح الإسرائيلي،

ونفذ الاحتجاج إياه في نفسه وفي عقله على السواء بشجاعة لم يستسغها الحاقدون، لأنها جاءت إليه، كما قالوا، في خريف العمر بعد أن انتشف خيال الشعر في جوفه. يعني مُحْتجا على وضعية يعيشها أو هي وضعية قائمة يتذمر منها أو غامضة يريد أن يشرحها بطريقة رمزية مثيرة لجميع العواطف حتى ولو كانت باردة في منتهى البرودة... فتكون المشكلة وتكمن دائما، بُعَيْد الانتحار حصرا، أو بعد خبر الانتحار أيضا، فيمن سيكون قادرا على فك الرموز والإشارات والرسائل التي يتركها المنتحر، وهل من سبيل لمعرفة كنهها وما تنطوي عليه من أسرار أو تتخللها من بياضات. وإذا انتحر المنتحر خلّف وراءه إشاعة، إشاعة فقط، لأن السر المكنون انتحر بانتحار صاحبه معه، ولم يبق للناس معه ما به قد يتلهون للتغلب على أوقاتهم الثقيلة. وأما بعد الإشاعة فهي شجاعة منه ، من المنتحر إياه، كما يراها بعض الناس، لأنهم لا يقدرون على فعلها والإتيان بها حتى ولو كانوا ساهين أو شاردين أو غافلين أو حاقدين أو ما شئت. كما لو أن الانتحار، في هذه الحالة المتناهية في العجز، بدعة لا يقدر على الاتيان بها إلا مبدع مبتدع، ولا ضلالة في الأمر لأن المنتحر يُوقّع موته بنفسه ويغيم في ارتحاله. ومعلوم أن من الناس من لا يقر فعل الانتحار ويعتبره، بحسه

الديني، قتلا للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق. إنما هؤلاء وهابيون في العموم لا يخشون شيئا في التأويل السلفي. تعقيدات كثيرة، إذن، لا يدركها المنتحر قبل الإقدام على فعلته، كما أنه لا يحسن إخراجها على أي نحو بالنظر إلى حالاته النفسية المتغايرة وانفعالاته المؤكدة اللاواعية أيضا. ثم إنه غالبا ما يغلق على فكره جميع النوافذ، فلا يعود له من شأن في الوجود إلا أن يختبر إرادته في حسم الموقف لصالح قراره... واعيا كان أم غير واع. ينتهي المنتحر إلى فراغ، نفس الفراغ الذي انتهى إليه (تيسير سبول) عندما أفرغ في جوفه سما زعافا لم يمهله أكثر من لحظة ألم ...وهو لا يعرف إن كان يُيَمّم نحو ثخوم النهاية نبيا غريب الملامح، أم يمضي إلى غير غاية، يملأ جوفه الظلام نبيا قتيلا وما فاه بعدُ بآية. ومن المعروف أن الحادث الذي يتولد عن الانتحار لا ينتج إلا الذكريات الأسيفة العابرة التي يصيغها المقربون في مرويات تُحكى في الأماسي العذبة أو في الليالي الحزينة، أو في عبَر تُتْلى أو نصائح تُسدى، وكذلك في الصلوات والمواقف الداعية إلى الصبر والسلوان.

ولا أقول هذا كله إلا لأن انتحار حنان الداودي التي ارتبطتُ بها في هذا العمل (سمِّه رواية إنْ أحببتَ) فاجأني حقا، وزاد فَدمّر أعصابي وأخلّ ببعض التوازن

الذي درّبتُ عليه نفسي في مختلف فترات وأطوار التراسل الذي قام بيننا بعد أن قبلتْ فكرة الترجمة بإيعاز من مريم البدري (لكتاب من العربية إلى الفرنسية، بطلب من ناشر كنتُ بينهما الوسيط فقط). خبر الانتحار في حد ذاته ...أووف، رهيب. ثم إنه جاء في بداية علاقة هائمة رَكّبتُ عليها، بعد شيء من الاستئناس، أحلاما. وأقول: كم من وقت صرفتُه للتآلف معها، بسبب طبع عدمي في جبلتي، كما لو أنني الحبيبُ المرادُ وهو الأرَب (الحاجة والبغية) وما لي سواهُ مليحا يُحبُّ.

انقطع التراسل بيني وبين حنان الداودي في متم شهر ديسمبر أو قبله بقليل. لا أملك أي دليل قطعي على ذلك، وما زالت الرسالة تشهد عليه كأنها الآن بيان يتم. وعموما فقد كان الانقطاع بعد عودتي من تونس، كما ذكرتُ لها، على شيء من الحزن. قلت لها كتابة: (إنني حزين، بل أريد القول إنني مريض بل ومُحْزِن مرضي دونما سبب ظاهر أو معروف). وأذكر تماما أنها، هي نفسها، حدثتني، من باب التداعي وربما التوارد، عن زيارة لها إلى نفس العاصمة حين ذكرت لي بالخصوص بأنها (عاشت تجربة إيمان قدري)، ذاكرة ذلك الصعود الصوفي المندفع نحو المقبرة لملاقاة سيدها الحسن الشاذلي. أيامها أيضا، فيما ذكرَتْه في تلك الرسالة،

7

كانت تعيد قراءة (مارسيل بروست) وتنعم بوحدته الأدبية، حتى أنها وقفت، هكذا قالت بحكم التداعي، في العمل الذي كانت تقوم بترجمته بتكليف مني بعد أن رشَّحَتْها مريم البدري لذلك، على نفس الجمل الطويلة المتراكبة التي سبق ل(بروست) أن تفنن في كتابتها في استرخاء ومرض وقنوط.

لا شيء يبعث على شيء خاص. لا حزن في تلك الرسالة، وبالمقارنة مع رسالتي لا حزن يمكن أن يقوم سببا على ارتكاب فعل ما. لا نسمة وداع أيضا يمكن أن تُشْتَمّ، في العادة، من الكلمات التعبانة. غريب، ومع ذلك قرَّرَتْ المغادرة.

صحيح أنني سهوت عن ذكر شيء مهم ورد في خاتمة الرسالة، رسالة شهر ديسمبر تلك. لقد قالت بطريقتها الفرنسية دائما، وهو ما يدعو إلى الحيرة ويَعْظُمُ معه الشك، أنها عانت من انفعال. انفعال؟ لا أفهم، أيمكن للانفعال أن يكون سببا أو مبررا ؟. (عزيزي سعد، بعد أن استعدتُ شيئا من توازني في هذا الصباح على إثر الانفعال الذي داهمني في الليل أود أن أبعث إليك...) إلخ. وبالفعل فقد حملت رسالتها إليَّ أضمومة من الأشعار المنسرحة ذات الانسياب الحزين، المتوترة أيضا، فيها سبر لأحاسيس نفسٍ تعبانة إلى خائرة.

استنتج الآن أنها بمنطوق الرسالة قضت ليلة من لياليها الأخيرة في انقباض أو تلاطم أو في هياج... لست أدري. مثلما لا أدري إن كان لذلك في ذاتها نفس الباعث الذي أفترضه في ذاتي لحالاتي المتغايرة بين الانقباض والتلاطم والهياج. لم يكن بيننا أي تشابه. هي مختلفة وأنا معلول. كنتُ في بداية الاختيار، وكانت هيّ في بداية القرار ...ربما. التشابه لا يمكن أن يقوم على الاختلاف، بل على التماهي الذي يوحد بين الماهيات.

واستغربتُ في بداية الأمر كيف أمكن لها، والعلاقة إذاك في تنام مضطرد، أن تتباطأ في الرد على الرسائل المتبقية في ذلك الزمن الحسير، تماما قبل نهاية تلك السنة التي شَعُرْتُ فيها لأول مرة، بعد سنوات أخرى، أن شيئا ما يغزوني غزوا داخليا يحملني على شيء كثير من التخيل. كنت أفارق الواقع. أفارق الواقع المر، إلى أن صار هذا التباطؤ في اعتقادي جفوة، وإلى أن تحولت الجفوة التي قدَّرْتُها بِتَرَو إلى قطيعة. لم أفكر في القطيعة ولا كنت أرتجيها أو أنها كانت في حكم الوارد أيامها. ارتحتُ لاطمئنان تلك المخلوقة الوادعة، وأخذت أشعر في باطني بالميل الذي يزين لي شيئا من الحب، خصوصا عندما رحل عنها كريم السعداني إلى الأبد في تلك الأجواء الدراماتيكية التي

لا يقدر على مكابدتها إلا الشعراء الذين لهم قدرة على الخلق والإبداع ...وهي التي تعلقت بأهدابه حد العبادة القدرية المشدودة إلى مثال مفارق مدى الحياة ...كما كانت تقول وقالته لي. وحين انتحرتْ أيقنتُ بأن العالم الذي كنت أبنيه في حلمي قد تهاوى علي. وحين انتحرتْ أدركت أنني أخلفتُ موعدا ما كان لي أن أخلفه بالسهولة التي سرتُ عليها متساهلا غشوما منفلتا من كل مدار في بناء العلاقة والتطلع إليها والأخذ بما كانت تأخذني إليه، وحين انتحرتْ جاءت اللعنات بالتتابع: عليَّ أنا، في البداية، لأنني جافيت وعدها النابح بكل الرغبات الطافحة باليتم، وعلى مريم البدري، في النهاية، التي بالغت في التحذير منها خوفا على هشاشة افترضَتْها لها ولم تكن إلا من هشاشة نفسها. وبطبيعة الحال يجب أن أقول أيضا من الأقدار الغاشمة التي تسَهِّل، بجميع المكاره التي تُدمي القلب والعقل، يومَ حتف كأنه يوم خلاص ...وما هو بيوم خلاص. وحين انتحرتْ قلتُ لمريم البدري أنت المنتحرة، أنت السبب، وحين انتحرتْ أوقعتني الظنون في الظن. ثم قلت لنفسي لا سبب يدعوني إلى افتراض السبب. الأسباب كامنة في العلل.

# انتحرت حنان،
# ها الأسباب ها النتائج

كانت مريم البدري تعرف، بحدس امرأة بارعة كأنها تملك علبة الأسرار المفقودة، أعماق أعماق حنان الداودي. لا فيما يبدو فحسب... كما هو المعتاد في التعبير عندما تساورنا الشكوك الذاتية في بحثها عن اليقين المفتعل، بل عن يقين الصداقة البعيدة والطويلة التي جمعت بينهما. أذكر تماما ذلك التحذير الذي ما زال يرن في أذني هامسا لي بما بدا لي أيامها حدبا وإنذارا تمتزج فيه الرغبة بالتناقض: (لا يا سعد، لا أريد لك يا سعد، أو لا أريد لحنان الداودي أعز صديقاتي أن تغرق في تجربة جديدة قد تكون أفشل من الأولى، لا، لا أبدا). مَن أنت يا مريم البدري يا المنحشرة بين الظفر واللحم؟ من أنت بالله عليك في تكوين هذه الوصاية وشحذ مبناها الكاره

وإلقاء فحواها في رسالة غير مطلوبة؟. هي تعرف، مريم، أنني استشرتها في أمر الترجمة، وتعرف أكثر أنها صاحبة الاقتراح، وتعرف في الأخير أنني أيدت مقترحها وأقنعت به صاحبي الناشر الذي كان يرغب في نقل الكتاب إلى الفرنسية... أما بعد هذا، هل كان يجمل بك، وأنا بعد لم أتعرف على حنانك، أن تلقين كُرْها بالمحاذير في وجهي. لقد كانت علاقتنا حبا، ثم صارت طيبة تتخللها بعض غصص شوهاء، ثم سار كل منا يوم الفراق في دربه: أنت إلى العلاقة الأخرى أو الزواج الآخر، وأنا إلى مدريد، أنت إلى الأولاد والعمل المرتجى، وأنا إلى شيء من الأحزان التي كانت تراودني عن نفسي في الوحدة الإسبانية الثقيلة... حقا في بداية الأمر، الوحدة الإسبانية، أي أنني لم أكن قد تآلفت مع الحياة الجديدة المنسرحة كما أصبح عليه شأني فيما بعد. مدريد جميلة وقاتلة للوحدات كلها. أما مصيبتي فالوفاء حين الغدر، فإذا فُهِمتْ هذه الجبلّة فُهِمْتُ لمن يريد أن يفهمني ... وإلا فإني أصيبُ نفسي بالتوحد.

وقد بدا لي من المفهوم تماما منذ البداية أنَّ بين مريم وحنان علائق أهمها: الماضي حين يكون عميقا في نوسطالجيته، والوفاء حين يخبئ الأسرار بين القرينتيْن، والتواطؤ ربما لأنك يمكن أن تستنتح

بسهولة ما كانت تبديه مريم، بحكم الطبع من خلال الفهم الشخصي، تجاه حنان– الشخصية المأساوية في درجة السذاجة والاندفاع، من اهتمام ورعاية وأمومية على التوالي. لقد خبرتُ واختبرتُ مريم في الحب فكانت عاطفية جبّاره من النوع الأكول في كل شيء، أقصد حتى في الجنس أيضا. وقد صمدت هذه العلاقة أزمانا، وصمدت أكثر في ظروف اضطرت فيها حنان، على ما فهمتُ من مريم، أن تهاجر وأن تتصوف وأن تتزوج وأن تُرزق وأن تنتحر... فضلا عن كتابة الشعر وعن الحب اللعين اللاعج والتقديس والخنوع، الخنوع بالذات، الذي ربطها بكريم السعداني قبل المرض وبعده، في الحياة وفي الموت أيضا. ولماذا لا أذكر كيف اتصلت بها في تلك الأيام من القاهرة سائلا عن مصير هذا، فلم تجبني بشيء. حسبت أنها لا تعرف فغفرت لها ذلك الصمت البارد. كانت تعرف ولكن تكتمها لم يبارح خنوعها فانطوت تلقائيا، أو حسبت ذلك، على سر لم يلبث أن انكشف لآخرين قبلها. إنها، مرة أخرى، ساذجة.

أعترف أن مريم البدري روّعتني بالخبر. أشك في أنني احتملته. أما كيف تعاملت معه في وحدتي وأساي فشيء مختلف تماما عن جميع الأخبار التي تنتهي إلينا ناعية أو شادية. لم أحتمل شيئا في

حياتي إلا هذا الاحتمال، لأن التي كانت تراسلني في اليوم والآخر، في توال عجيب لم ينقطع، وفيه مسار حياة، وفيه عواطف وكبرياء وأشياء من الانكسارات الوجدانية، وفيه القصص الباعثة على المراوغة، وفيه الشعر الذي كانت أبياته المنسرحة تحترق بفعل اللغة الوقّادة، وفيه وفيه وفيه. أنا الصبر إذا شئنا، لأن الرسائل الأخيرة لم تكن تنبئ بشيء، لم يكن لها أفق ولم يكن في هذا الأفق أي ملمح ولا لمح ولا احتمال. إن التي كانت تراسلني لم تودعني وأبقت على الفراغ وداعا يوم أن كان لها أن ترد على رسالتي. أنا ما زلت، والنعي يلاطمني بقسوة، في انتظار الجواب المستحيل. دليلي في الرسالة الفرنسية التي لم أقدر على ترجمتها حين تسائلني في الحلم عن التأويل، حين تقول لي: ألا ترى معي أن هذا الحلم رهيب. أراه معك ولكنني لا أراه معي ولا أرى تأويلا ولا أرى.

مريم إذن هي التي كانت في العلاقة إشارة وهي الآن في النعي خبرُ عبارة. مريم حبيبتي القديمة وهي تشهق في مقام الجلد على قرينتها فلا تزيد على النعي أي خبر. مريم الملذوعة، ويا ليت هذا اللذع كان رحمة. وفي أخبار مريم البدري أن حنان الداودي عجلت بالمغادرة لأنها ملت نفسها واقفة في زاوية الانتظار

على مقربة من اليأس. وأنا؟ كيف لا تسعى الرسائل إلي، بعد هذا، كما كانت تفعل على البعد لتعزية الفقد؟ أقصد: من سيكتب إليّ حتى تكتمل بكتابته كتابتي؟

# هدفي من الكتابة، صراحة

هنا تغير المسار، مسار الرواية أعني.

لاعَبتُها بالفعل في أوائل عام 2007 عندما كنت موظفا في شركة (أماديوس إسبانيا للاتصالات: الكنولوجيا التي تساعد على الارتباط الدائم مع الإيكوسيسطيما غلوبال لعالم الأسفار وتنظيم المعاملات وتقديم أحسن خدمة للمسافرين) بمدريد، وحين أدركت، مع السيولة التي تدفقت علي على نحو لافت، بأن التقدم فيها يطاوعني أكثر مما يعجزني شعرت، في أمسية غريبة التفتْ علي فيها جميع الأحزان الكونية التي لا قبل في الوحدة لروح بها، بأنني هكذا فجأة لا أملك موضوعا للكتابة.

أقول: اللغة تسعفني ولا يسعفني الموضوع. وأقول ولو في الحيرة المدبرة: ها الموضوع فأين اللغة؟

نضبت عليِ حين غرة موهبتي حتى خلتني صرت جافا مُستقطرا لا أريد من الكتابة أن تصادقني ولا من الخيال أن يؤاخيني... حتى لا أستمر في كتابتها، كتابة هذه الرواية، فأتحرر منها بتعلة مقبولة تسمى عادة: الجفاف... أو هذا هو الاسم المناسب الذي يطابق الحال. الجفاف المُعْتَصَر إذا شئنا. وحصل بالفعل أن جفت «حالتي» تماما، أقصد جف ذلك الينبوع الفياض الذي كان يزودني بجميع المعطيات. ابتردت اللغة، هذه التي إذا ابتردت معانيها، رمزيا أقصد، توقفت الحكاية مع ابتراد معانيها.

لم يكن الينبوع الفياض وحده الذي جف ماء خياله، الدوافع الفوارة أيضا: عندما شرعت كنت مسكونا ومنسوجا بالقصة التالية: بين شخصيتي، الشخصية التي ابتدعتُها في الرواية باسم كريم السعداني، وبين امرأة لا يعرفها، هي حنان الداودي، تقوم علاقة غريبة وغامضة هي بين بداية الحب المتوله من طرفه، والشعور المفاجئ بالسيطرة على ذات مُحبّة من طرفها... وذلك كله اعتمادا على مبرر اعتباطي، قد لا يكون من صميم الحكاية ولكنه مبرر على أية حال، يتعلق ببحث الشخصية المذكورة عن مترجم لعمل أدبي، وظهور المرأة، من خلال واسطة استفتاها في الأمر، كشخصية أخرى مرشحة للقيام

بدور المترجمة. على أن المهم في هذه العلاقة، وهو الجوهر، أنها كانت، أعني العلاقة لا غيرها، تراسلية لم تتحقق مطلقا بين كائنين (الشخصية والمرأة) انفعلتْ أيامهما بالتأكيد من خلال الحكايات التي تبادلاها أيما انفعال... حتى صارت شخصيتي ترى أنها تورطت في حب مفارق ليس له جسد يشتهيه، وتحقق للمرأة أن تستعبد شخصية وهمية كثيرا ما تصورتها في الواقع.

فكان هدفي، صراحة، أن أتملك عالما اختلقته في وحدتي، أو أن أنفث، بعبارة أخرى، في العالم الوحداني الذي كنت أعيشه في تلك الأيام، نوعا من الحماس ينقذني من اليأس والإفلاس، المعنويين على الأقل، اللذين استبدا بي وما في الظلم من تحكم المستبدين. عادة ما يبدأ الكاتب من نقطة معينة، ثم يتنزل الموضوع تدريجيا في خضم التفكير الذي ينصب على إدارة المواقف وتحريك الشخوص وصوغ لغاتها وأوضاعها والحركات التي يمكن أن تأتيها. وهكذا كان ...بالإضافة إلى الظروف الذاتية التي، كما قدمت، كانت مربكة، ولكنها ساقت لي المناسبة كذلك. لهذا أقول: فترة ضعف هي أكبر من لحظة... تلك التي كانت وراء الدوافع. فترة امتحان ساقتني إلى الاستذكار أداري جذوتها أعمق من

فورة. هكذا وجدت أنني على أكبر استعداد ممكن، بعد تمرين أخذ مني على ما أذكر أسبوعا، لخوض المغامرة.

من الصحيح أن التناقض كان بيّنا يفضح سريرتي، وأنا المتكتم عن أوضاعي، ويذيع أسراري تلك التي أداريها وأنا العازف، لا غيري، على أوتاري. إذ كيف أشرع في الكتابة وأنا في يأس من نفسي؟ ثم هل لحماس أنفثه في وحدتي أن ينجيني من انقباضها الذي إذا استولى على العقل وعليه انقفل نهائيا ويالله الحسرة؟ مجرد سؤال كان يدعوني جديا إلى التفكير في التناقض من جهة، وفي الجفاف المشار إليه أعلاه الذي هاجمني في مصب الينبوع من جهة ثانية... وفي أشياء أخرى قد تكون ثالثة ربما.

الصحيح أنني بدأت خاليا بالتأكيد من جميع «المعاني» التي تحمل الكتاب، بعضهم ربما، لست أدري، على التفكير عادة في موضوع كتابتهم، أو التخطيط المسبق للعوالم التي يودون كتابتها، أو امتلاك شيء من الوضوح حول المسارات التي سوف تسير فيها الرواية لبناء عالمها الخاص. على أن هذا الخلو الذي يكاد أن يكون بياضا مفزعا يجب أن يُفهم أيضا على الوجه النسبي: كانت لي، في الواقع، رسائلي وذكرياتي ومعرفتي العامة... إلى جانب

رغبة متأججة، كلية ومطلقة، كنت أداريها طول الوقت، أقصد أن أكتب رواية وانتهى الأمر... بعد أن جافيت عالم الكتابة والنشر سنوات كدت أموت فيها من الانحباس... مع الاعتبار بالمبالغة الممكنة التي تدعوني إلى قول كهذا. الذاكرة، إذن، كانت في الأساس عالمي وسندي ومفتاح عباراتي والملجأ الذي سوف يؤوي لغتي. الذاكرة بالفعل بما حوته من عناصر، ربما، لم يتلفها نسيان عصيّ كثيرا ما أذل قدرتي على التذكر التلقائي، وغالبا ما ورطني في التداعيات المتوالية، وفي معظم الأحيان كان يشقيني هذا التذكر فصار لي في التدوين الذي يجمعني باليقين لاحقا شفائي. الذاكرة التي إذا خانتك لا تنكتب مع خيانتها رواية ولا أي شيء.

رأيت في هذه الذاكرة، إذن، أن المرأة التي تراسلتْ معها شخصيتي عبر البريد الإلكتروني أزمانا لا تريد أن تغادر بتاتا المنطقة التي استوطنتها لمدة ثلاث سنوات. تفكر فيها (شخصيتي لا أنا)، تتوسد كتاباتها، تشعر بكون ما قد يجمعها بها. المرأة هذه كانت لاهية على الأرجح، لا تعرف لهذه التخبطات في نفسها أو في نفسية الآخر أثرا. كانت شخصيتي، في جميع ما كانت عليه من تركيز وانتباه وأوهام، شديدة التعلق بها... لو أدركتْ تلك المرأة أن هذا التعلق مبعثه في

ألياف التكوين العميق تلك الآثار التي انحفرت عميقا في تربة الشهوة بينهما مع تواصل الكتابة ودوام التعبير عن ذاتيْهما.

في الذاكرة رأيت، في بداية الأمر، رسائلها الكثيرة مرتبة تتكلم فيها عن الشعر أو يتكلم الشعر عنها، عن كريم السعداني في علاقة جوانية ذات نفحة صوفية تلفعت بالغموض وأبحرت نحو مجهول، عن الحياة الحية–الميتة التي كانت لهما، عن العذابات والذكريات العطرة والأخرى المرة بدون كبرياء، عن الآخرين الأشرار الذين على أفئدتهم أقفال والأخيار الذين في أرواحهم معاني البذل. شخصيتي كانت تريد التعرف على تلك المرأة، منذ البدء، معرفة يقينية تتدافع فيها الرغبات إن لم تكن الرغبات هي الاندفاع نفسه، ومع أنها لم تكتم حبها ولا فاتحتها به، رغم الإشارات، إلا أن المرأة حافظت على وقار، لعله كان كاذبا، حتى كانت لحظة الختام، تلك التي شعرت فيها شخصيتي أنها تريد أن تقول لها: ربما أحبك الآن بالذات في هذا الصمت الذي جرف حبيبي إلى الموت. ربما أدركت الشخصية، مع توالي أيام الكتابة، أن المرأة لا تشعر بها ولا تحس بمواجدها، أما وأن شخصيتي تشعر بها وتحس بمواجدها فقد كان فيه ما يدعو، على أية حال، إلى الارتباك. وبلسان شخصيتي هذه

أقول حالما: لم أفاتحها في الموضوع مطلقا، ولكنني أرسلت إليها جميع الإشارات التي يمكن أن تفهمها، على شيء أو كثير من الغموض، لست أدري، ما كنت أفكر فيه وكنت أريد التمكن منه. نعم هي بالذات تلك المرأة التي كنت أريد التمكن منها، مع أنني لم أكن قد رأيتها من قبل، ولعلها من الممكن الذي أرتجيه، منذ أن أرشدتني إليها مريم البدري في ظروف الحرمان والارتباكات المزمنة التي كنت أعيشها في تلك الأيام، أن تكون امرأتي ...دعني أقول: امرأة لبعض الشهوات التي تراودني عن نفسي.

هذا ما رأيته في الذاكرة وأرتني إياه ذاكرتي، ذاكرتي عنها.

ورأيت ورأيت حتى احتُلِبَتْ ...تلك الذاكرة، فجاء الانتحار للختم.

حدثتْ واقعة مؤسية في تلك الأيام إذ كان للصدفة الكريهة دور فيها على كل حال وسيعتبرها البعض طبيعية: مات كريم السعداني من جراء مرضه اللعين وشخصيتي تغازل هذه المرأة في صمت، وحين أيقنتْ هي تماما، في حمى التردد والتسليم بالأقدار والاستسلام وبوادر النسيان كذلك، أن كريم السعداني لن يعود أبدا لأنه مات وانتهى شرعتْ، وقد يكون بمكر، تفاتح شخصيتي في الحب...

وفي تلك اللحظات بالذات، لأنها كانت، في مداها الزمني القاسي والمتشنج أو المبهر واللماح، لحظات حب ممكن فقط، انتهت الرواية .أقصد انتحرت حنان الداودي ولم يعد في الأمر، بعد الفجيعة وربما بسببها، من مبرر للاستمرار في أي شيء. الرواية التي كانت تُكتب بمداد الذكريات وعواطف التوله والبعد النفسي كما القرب الموهوم والاشتباه والانفعال، بكل ذلك وغيره، انتهت.

كالإحساس النازع قصدا إلى الفراغ من مخاض متدافع التوترات توقف الألم الممض.

لا ولادة، لا صراخ، لا تركيب. أريد القول إنني لم أعد أجد في ذاتي ما يكفي من المبررات السردية للاستمرار في الكتابة. لنقل إنه الجفاف الذي تكلمت عنه حين رأيت فيه نضوبي. لقد أصبحت الرواية بين يدي على النحو الذي يفيد أنني انتهيت منها وكأنني لم أبدأ في كتابتها بعد.

# القارئ أحمد الناصري

فرغتُ من روايتي، أو لعلها فرغت مني، وأرسلتها بالبريد المضمون، تماما كما فعل ماركيث قبل سنوات، بناء على اتفاق سابق إلى صديقي أحمد الناصري كما جرت العادة بذلك في كثير من المرات، مرات محسوبة بعدد الرويات التي كتبتها وشاركني في قراءتها. ولما أخبرني في رسالته الجوابية، الإلكترونية بالطبع، بفحوى ما سوف أشير إليه بعد قليل ارتبكتُ في الأول والأخير. وحين وضعتُ رواية س.ج. الذي أشار عليّ بقراءتها بين يدي أيقنتُ، حقيقة، أن توارد الكتابات وتشابه دواعيها له دخل في الموضوع. أعرف أن الأفكار والمواقف والتصورات والسرود تلتقي في كثير من زوايا المصادفات الممكنة، لا لتكشف عن السرقات البليدة كما قد يوحي بذلك السياق، بل لتشكل التوافقات المذهلة التي لا يقدر

فَهْمٌ في كثير من الأحيان على شرحها. أنا نفسي لا أستطيع شرحها.

ماذا فهمت من الرسالة في الحيرة ؟

فهمت من الرسالة بعد الحيرة، حتى وأنا لم أقرأ بعد س.ج. أن الناصري أخطأ التقدير تماما... حتى لكأني كنت أريد له أن يجانب التقدير الصحيح، ولِمَ لا أن يعميه التقدير الخاطئ فلا يذكر لي شيئا مما رآه أو ادعاه. أولا لأن روايتي هي، من حيث الموضوع، علاقة حب وهمية قامت على التراسل الإلكتروني بين شخصيتين (رجل وامرأة) لم يلتقيا أبدا ...إلا إذا اعتبرنا أن التراسل الإلكتروني هو لقاء من نوع خاص، وماذا يكون هذا الخاص في غياب الجسد والتوترات أو الاندفاع والرغبات؟ ويستطيع القارئ أن يدرك، من خلال تراسلهما، أنهما لم يتعارفا من قبل معرفة والله جرّت ندما...، كما سيقول أحدهما، إلا في دوام التراسل وتوالي الأيام وانبعاث الرغبات من مرقد. علما بأن كثيرا من المواقف المسرودة، كما في حياتهما معا، حقائق مطروحة كان من الممكن أن تؤلف بينهما في سياق الحياة التي عاشاها كُلّ في عالمه ومجراه وغفلته. الموقف المريب في هذه العلاقة أن حنان كانت تحب كريم السعداني قبل وفاته وبعدها حبا

جعلته هكذا، من شدة التوله، في مرتبة الإيمان من عقيدة المؤمن. ثم نفهم في إرتباك، من سياق الرواية نفسها، أن كريما شخص معروف لم يكن من الضروري أن يتخفى في اسمه، بل وكانت حنان الداودي تتبجح بذكره. بينما لا نستطيع القول بشيء من ذلك في رواية س.ج. محال. فهذه رواية حب دفين ولَعْبِي بين امرأتين (سحاقيتين كما يقال) اتصلتا اتصال انجذاب لزمن معين بحكم العمل، فقامت بينهما عواطف ملتهبة أفرغتاها لاهيتين مطمئنتين قانعتين على مدار فصول الرواية في لعب لعوب ومرح طروب وشهوات منفلتة. العلاقة ملتبسة منذ البدء ولكنها جميلة وادعة كما قد يدرك القارئ المولع بالتكهن، وفضلا عن الالتباس فهي شهوانية وملتهبة فيها الشبق. أوّاه كم هو جميل هذا العالم الخاص بأهله.

ليس في روايتي، والحق يقال، أي شيء من ذلك لأسباب مدركة، منها أن العلاقة لم تقم أصلا بين جسدين من أي جنس حتى تكون الشهوات مبناها، ولم يكن فيها أي فن من فنون الملاعبة التي تتميز بها العلاقات اللهوية. لا بل إن الحب الذي جمع بين المرأة والرجل في روايتي هذه ليس حبا إلا إذا اعتبرناه «إلكترونيا» تسامت فيه، مع ذلك، عواطف جياشة...

لم يحسب أي طرف بالمرة أنه يمحضها للآخر على سبيل الانجذاب التراسلي.

أوضّح مايلي: إن سعد لم يدرك أن حنان تكاد أن تتمسك به تمسك المتشدد بزمام إلا حينما أشرفت العلاقة التراسلية بينهما على النهاية، أي حين انقطعت بالمرة، قبل القرار الذي لم تُعلم به بالمرة، فلم تعد تجري فيها لغة ولا بيان. قل إذنَ: تناءت الكلمات في جفاء يوحي بالقطيعة، وهو ما تحقق بالفعل في النهاية الأخرى، النهاية المكتومة. أضف إلى ذلك أنها، حنان الداودي، ربما أقدمت على ذلك لاشعوريا بمجرد أن غادرها المرحوم كريم السعداني الذي كان المرض في تلك الأيام، دون أن يشعر به بتاتا، (ولا كل شيء يفسر بغموضه وباطنيته كما يفعل البعض)، قد استوطن جسده فأجهز عليه في حالة انتظار قاتلة كابدها هو وعاناها أصدقاؤه معه ...أما حنان فلا يوجد وصف بقادر على وصفها... لا على وصف مشاعرها كما قد يُفهم، بل على وصف حناياها التي أطبقت على الألم نهائيا، أما النهاية التي ارتضتها في السر فكانت، على الأرجح، لُبّ ألم فظيع انطوت عليه فمزقها تمزيقا.

إن الصدفة ظالمة، ظالمة بطبيعة الحال ...كما قد يقول من عاندته وسيّرتُه شبهة، أو كانت له أيضا

سريرا تحليليا يرشده إلى عُقَده ومكبوتاته. مرض كريم السعداني بدا كما لو أنه صدَفة عاثرة، بينما كان حب المرأة التي دوخها شبيها بالعبادة، أما الانتحار فهو بمثابة احتجاج على الموت المبكر... فيما يبدو لي الآن فقط.

# رائعة سيلبيا جويس

حتى كان أن وصلتني من الناصري رسالة فقرأتها.

بدت لي رسالته مبهمة وأنا أحدق مليا غارزا بصري في أولى عباراتها المتلاصقة.

ربما تخيلت أن صديقي بمجرد ما أن انتهى من القراءة (قراءة روايتي كما أدركت بعد لأي) حتى أبرق كاتبا إلي دون إبطاء :(عليك بقراءة «الوداع الأخير» لسيلبيا جويس ...رائعة، رائعة بجميع المقاييس، كأنه العالم الذي تنسجه بطريقتك الخاصة). ربما أحسست بالمفاجأة أيضا، حيرة خفيفة مزعجة إبرتها موخزة. لم أدرك، للوهلة الأولى، أن أحمد يعني شيئا محددا على وجه الخصوص. لا بل ربما توهمت أنه يوحي لي بشيء نعرفه سويا وقد أكون سلوت عنه... إلى أن فهمتُ بشيء من التأكيد أنه يذكرني بروايتي التي سبق لي، قبل عام، أن أرسلتها إليه على العادة التي

اتبعتها معه، منذ فترة طويلة، كلما فرغت من كتابة كما قلت. كنت أبعث إليه بالكتابة، أنتظر حتى يفرغ منها بدوره، أنا على انتظار خاص، تلك حالتي، أريد أن أعرف، تلك شدَّتي، ويهمني هكذا أن أسترشد، بعد القراءة التي يتولاها بكثير من الدقة والصبر، بملاحظاته المفيدة... قبل الإقدام على النشر الذي كنت أتهيبه باستمرار.. لأسباب في نفسي أتحير عادة في إدراك بواعثها.

ولفترة كدت أتصرف تصرف الغافلين مع الرسالة التي وصلتني من الناصري. لا أفهم مطلقا لماذا قرأتها أيضا بكثير من الاستخفاف في بداية الأمر، بل ولعلي تصورت أن أحمد ربما يمازحني أو يريد أن يفهمني شيئا مما دأب على إفهامي إياه بكثير من الإلحاح، وأعني بذلك أنني أكتب في الغالب رواية مختلفة،(جيدة في تقديره)، وأن الإطراء الذي يحدثني عنه ليس فيه من المجاملات المعتادة أي شيء، لا بل هو الرأي الشخصي، رأيه، الذي يعتبره موضوعيا أو ذاتيا، لا يهم، كما كان يقول في غالب ما يكتبه إليّ أو يصرح لي به مشافهة.

ولأسباب كثيرة، منها أن رسالة الناصري لا تتطلب الجواب الفوري، ربما لأنها تدعوني إلى القراءة فقط، تجاهلت ذلك الاحتمال الذي كان يلح

عليّ، أي أن أكتب إليه بنفس الطريقة الاعتيادية، ويا كم رددت ذلك على مسمعه بنوع من التواضع الكاذب، لأقول له: لا، لا أبدا، لستُ إلا المحاول المبتدئ، ولعلي لا أملك شيئا من الأدوات ولا من المؤهلات التي تمكنني من الكتابة على النحو الذي تتصوره يا صديقي .سأقول له في الجواب هذه المرة بعد كل ذلك: شكرا عزيزي، سوف أسعى إلى قراءة رواية سيلبيا جويس، وقد نتناقش في الأمر في الوقت المناسب، مع المحبة الدائمة ...هكذا أنهى الرسائل إليه، ذلك الصديق الفريد الذي ربما يريحني وجوده البعيد حين يضفي، أعني ذلك البعد، كثيرا من الشوق على علاقتنا الأزلية.

شرعت إذن في قراءة الرواية المعروفة (الوداع الأخير) لسيلبيا جويس في بداية شهر فبراير بعيد صدورها في مطلع ذلك العام طائعا متلهفا، هذا إلى نوع من الشوق الذي أُرجعه إلى أنني كنت مولعا، منذ فترة سابقة، بقراءة بعض أعمالها المذهلة، وهي ليست كثيرة كما نعلم، في لغتها الأصلية، ومنها («الجنوبي» التي تحكي قصة لجوء زوجين إلى مستعمرة بدائية)، وكذا بسبب الأصداء الطيبة التي بدأت تخلفها في بعض الجرائد حين رأى فيها بعض المعلقين تجربة غير مسبوقة في الحديث عن

العلاقات الغامضة بين بني البشر، وبخاصة حين تتلاقى مصائرهم المتصادمة في الأزمات والملمات.

كانت تلك الأيام على ما أذكر أيام مطر لم تنقطع خيوطه عن دنيانا إلا في لحظات كان يبدو فيها الصحو دعابة سمجة. القراءة لذيذة مستطابة تسترخي لها نفسي قرب النار المتلاهبة في الموقد. غموض في المكان تحسبه رومانسية مفتعلة. الزمن كأنه لا سببيّ استرخى بدوره قرب النار. حقا كانت تلك الأيام باردة. بيد أن الثلج لم ينعم على هؤلاء الناس، الذين غالبا ما يترقبون سقوطه بحنان، بِالنّعَم التي تقودهم، في الغالب، إلى المشتى الرائع حيث (البرادو) في الضاحية المدريدية بالخصوص. أقرأ بدون توقف حتى ينتابني الملل، وأشعر أن قراءة الرواية لا تلذ لي إلا في تلك الأجواء الداكنة. لا لم تنعم الطبيعة على هؤلاء الناس بأي شيء إلا ما كان من البرودة التي تتسبب في الكآبة والعياء.

لم تكن القراءة سهلة مع أنني عملتُ بالمعنى البعيد الوارد في قول الكاتبة في مقابلة لَها مع مجلة (ماذا تقرأ؟) : (هناك شيء خاص في سِيَّر النساء، أعني تلك القدرة المذهلة على الدمج بين الحَميمي والغيري التي تعلمنا أشياء كثيرة، في مقدمتها أن العواطف الدفينة هي التي تتحكم في أهوائنا...). العواطف الدفينة،

إذن، هي التي تتحكم في أهوائنا. جائز. ثم كان أن استمتعت بكلام ب. أرانغو الناقد المعروف الذي اعتبر (الوداع الأخير) تجربة ساحرة تستظهر خفايا العلاقات المستحيلة ... العلاقات المستحيلة المبنية على اختلاف الأوهام وتضاربها كما ختم مقالا له حولها.

أقنعت نفسي بما يلي: سيلبيا جويس روائية تنفرد بالتأمل. الرواية وقد صدرت، بعد ترقب، أخذت تستمطر الأقوال المادحة. أنا مولع بالقراءة، وهذه الرواية يجب أن تُسْتَهلَك. ويخيل إلي أن اقتناعي بذلك راجع أيضا لبعض التلميحات التي ألمح إليها الناصري في بريده عندما جعل منها، مع علمه بتقديري لصاحبتها، (تحفة) هكذا بالحرف، سوف، كما أضاف كاتبا، تبهرني بالأسرار الملغزة التي تنسجها حول العلاقات الإنسانية.

# الاقتراب والابتعاد

ما أن شرعت في قراءة الصفحات الأولى التي تقدم فيها الروائية سيلبيا جويس البطلة ساندرا، وهي تحاور مونيكا باهتمام، حتى تبين لي، في اندهاش واختلاط أفكار، أنني أقرأ الفصل الأول من الرواية التي كانت كتابتها قد أخذت مني وقتا طويلا... حتى أني كنتُ أداعبها بين الفينة والأخرى، بل وأترجاها، أن تتواصل في الكتابة حتى لا أسأم منها. ربما أحسست بالارتباك، بل أحسست بالارتباك... لولا أن الحوار الذي يجري قدامي بين بطلتين خفف من حرجي. في خضم الحوار الذي يتبدد صداه تهجم سندرا، بعد أن نطت خطوتين، على مونيكا واقفة، وإذا بها، بين اندهاش وإعجاب، تأخذ رأسها بين يديها راسمة على شفتيها قبلة عميقة، أو حرارة قبلة عميقة في الواقع، أخرجت الجمهور من صمته. التصفيق، التصفيق، التصفيق كما تسرد

الرواية. القبلة عميقة وطويلة. تمتصها كما الشهد على الأرجح. تستحلب رحيقها كما يفهم من التعبير الذي استعملته سيلبيا جويس عندما قالت بالحرف: «قبلة وَلَه». التصفيق لا يتوقف. ثم نرى كتابة كيف تفترقان، وفيما هما تتباعدان الواحدة عن الأخرى سيرا نحو الخلف إذا بأيديهما تترنح في سقوط بعد انحناء يبدو تدريجيا أو على مهل في إيقاع مسرحي متناغم. تبتعد ساندرا والجمهور يصفق. تدور مونيكا على نفسها لتختفي، كما تقول الكاتبة، «**على مهل وفي بدنها النشوان بقايا لهيب متقد**».

سيتضح من القراءة أن بين الجمهور، حتى حين ظهر أن ذائقته لانت للعواطف، غاضبين بدأوا يلوحون بأيديهم نحو الخشبة. أياد ترتفع. أياد أخرى في حركة هجوم تكوّر شيئا من الغضب. ما زالت الحركة على مسرح الكتابة بين ساندرا ومونيكا في تجاذب واندفاع. بالكاد يعلو الحوار على الهمس. كان الغضب في القاعة أقوى. يتعانقان من جديد في المشهد المعروف بـ «الانكفاء» الشديد الحنان الذي أصبح فيه جسد ساندرا على صدر مونيكا، فيما انقلبت هذه على ساندرا فصار رأسها مندسا بين فخذيها تغطيه أردية لباس فيكتوري من القرن التاسع عشر على الأرجح. هل التحمتا في نفس

القبلة المشتهاة؟ في القراءة لا ندري شيئا. نتوقع في الخيال أن العواطف التي استعرت مع الحوار جاشت. ويستمر المشهد على إيقاع يريد الإيحاء بالذاتية المتمردة على الأخلاق البروتستانتية. خلتني أقرأ في سياق آخر مقاطع من أشعار«سافو» حين تقول في لوعة: («**تتقد النار الدافئة فتسري في جسدي كله، العيون الخائفة تهيم، وسمعي يصيخ إلى الحشرجة. زمليني بالشذى البارد، جامدة كالعشبة الذابلة أنا، وحين تخور قواي، متثاقلة بدون نفس، سأبدو ميتة**»).

ما الذي جعل الناصري يقع في الخلط حين لا يبدو على روايتي أنها تستوحي هذا العالم اللذني المشتهى... إلا حين تدعو المقارنة إلى الاشتباه في أن العلاقة التي قامت بين حنان الداودي وكريم السعداني كانت صوفية المظهر شبقية المخبر، بالغت في التوله وإذكاء عناصر الشهوة؟ يزول انشداهي، وأجزم، مع نفسي، بالاختلاف.الناصري ضحية اشتباه مندفع لا يصمد أمام مقارنة. أنا أتكلم عن علاقة ،وسيلبيا جويس تتكلم عن عالم. شتّان ما هُمَا.

حين تتطور رواية سيلبيا جويس نعرف أن العلاقة الشهوانية المسرحية التي قرأناها لها جذر في الواقع، وأنها ما ارتفعت إلى مقام المسرح إلا لكي تجسد الشهوة علانية ضاربة هكذا بطن المحرم ضربا.

سنعرف أن بين ساندرا ومونيكا علاقة سحاقية. سيقرران الهجرة بها، في الرواية، إلى منفى. المنفى للاحتماء من غضب المجتمع... اغتاظ لقبلة وادعة أتاها الحنان سائغا. سنعرف في خضم القراءة أيضا أن سيلبيا التي كان يبدو عليها الكبر في المسرح والتوله في القبلة والحنان في العناق لم تتردد، عندما ضاق الخناق على حبها لمونيكا، في الهجرة بعيدا حتى تبترد عواطف الناس.

في مستهل الفصل الثاني الذي عنوانه: «الرحلة» نتحول مع الرواية، ومع ارتحال الشخصية إلى أجواء سردية أخرى، إلى المنفى الاختياري الذي اختارته ساندرا عندما قررت الانفصال عن عائلتها والانقطاع عن المسرح معا. سنتعرف في بداية الأمر على مونيكا وهي حائرة، نفس الحيرة التي عاشتها حنان الداودي من جراء المجافاة التي قاستها في الحب المشتعل... على الأقل في تلك البدايات الأولى لعلاقتها بكريم السعداني. تمرض مونيكا من الشوق والتحرق. تمرض من الفراق الذي أحدث في الصدر غلة. تمرض من الكآبة اللاعجة التي اطمأنت إلى ذات أوْجَعَها الفراق. تقول الرواية في فصل «الملاذ» إن ساندرا غادرت إلى «مامودزو» بجزر «مايوط» في رحلة غامضة لا نعرف عن دوافعها شيئا. هل كانت

المغادرة هروبا كما كان الانتحار لحنان موعدا؟ هذا هو المرجح كما يوحي بذلك السياق. لا شيء يؤكد ذلك. ثم يأتي الفصل الذي أشكل على الناصري في اشتباهه المقصود. أعني أنه رأي في التراسل الذي قام بين مونيكا وساندرا بعد استقرار هذه في جزر «مايوط» وتواصله أزمانا، رغم الانقطاعات التي شابته، تشابها استوحيته أنا بطريقة مختلفة في العلاقة الافتراضية التي قامت بيني وبين حنان الداودي قبل وبعد وفاة كريم السعداني.

أعرف أن الناصري أراد أن يُطلعني على تشابه محتمل. العواطف المثلية ليست من الحب إلا بمقدار ما يكون الحب رغبة في التملك يحذوه التماهي. العلاقة الأخرى، لنقل غير المتماثلة، مبتدأها الرغبة المتفرعة عن اندهاش... تلك المسكونة بحب التعرف والتطلع إلى ارتباط محجوز لم يقع مطلقا، ومنتهاها لست أدري. كدت أقول الانتحار. في الرواية الانتحار بالتأكيد.

سينتهي التراسل في رواية سيلبيا جويس بالانقطاع الذي هو الانتحار آيضا، وينتهي في روايتي بالانتحار الذي هو الانقطاع آيضا. أعني بذلك الفعل الذي أصبح بقوة الفجع انتحارا أقدمت عليه حنان الداودي في غفلة من نفسها على الأرجح... هي الشاعرة. ستقول

في رسالة بالفرنسية أنشرها في الصفحة الأخيرة ما ترجمته: (... واعلم أنه في تلك الليلة التي حلمت فيها أننا كنا معا في غرفة، كان هناك صبيّ، طفْلك، ومريم هي التي وضعته بين ذراعي لكي أحضنه. كنتَ بمحاذاتي، وبمجرد ما أن ضممته إلى صدري أمْسك عن الصراخ وهدأ تماما، وبينما كنتَ تنظر إليه جاءت المرأة ترتدي قفطانا وقد عادت من مكة فانتزعتْ مني الصبي.)

ثم تقول حنان الداودي : غريب هذا الحلم، أليس كذلك؟.

أعْلمُ أنها كانت توجه السؤال إليّ. أعلمُ أنها كانت تريد أن أغوص معها في التأويل. أعرف أنها كانت تريد الحديث بالرمز إلى تأويل. أما العجز فقد كان عجزي، وأما التجاهل فقد كان تجاهلي المفتنّ بالرغبة: الرغبة في القول عندما يستحيل الكلام إلى صمت مدهش. كيف كان لي أن أفسر الحلم المغموس في صوفيه أبي الحسن الشاذلي وأنا لست من عالم المأخوذين بالذِّكر المفرد، ولا من أصحاب النفس مَرْكَز الشهوات في المخالفات، ولا ولا ولا مركز العجز في أداء الواجبات.

# قبل الرواية

بعد سنة تقريبا أصبح التباعد قائما لا رجعة فيه. تَحَوُّلٌ ذهني؟ ارتباك عاطفي؟ ملل يعاند التباعد؟ الاستحالة القدرية التي تنازع الحال، حال التواصل المفقود؟. لست أدري. هل كان الانتحار الغضوب المفاجئ الذي لم أعلم به؟ قَلّتِ الرسائل تماما، وأصبح من الواضح أن الشعور الوهمي الذي غمرني بالحب في بداية التجربة تاه، لا لم يعد له أي مستقر إليه يهفو. اللغة العصية التي كانت فيما مضى طوع بناني، تسابق عفوي، تنثال علي عباراتها السانحة، لم تعد حقا ذات بوح، لم تعد تسعفني في تركيب أي معنى حقيقي كان يدعوني من قبل إلى البوح والانتظار والتلهف. هي أيضا لم تعد تقول شيئا، حنان الداودي، لا بل كان عتابها، في أول الأمر، مزمجرا رددتْ فيه، بلسان مضطرب، نفس العواطف الغامضة الشديدة العنف التي يتراشق

بها العاشقان، عاشق متجبر وعاشقة متكبرة، ثم أصبح عتابها كاويا يقول لي بأقوى عبارات الشتيمة أنني نذل ما كان لي أن أقودها وهي الطائعة لا بل المستسلمة، بجميع فنون المغريات التي استعملتها بدهاء، كما كانت تدعي، إلى متاهة. أطعمتها، كانت تقول لي، شيئا كثيرا من السحر، ثم لما لم أحقق مرادي منها أجفلتُ عنها. هي التي تقول دوما.

لليال لم أنم إذ يقول لي التفكير بصوت خفيض: قُمْ من الرَّقْدَة، كيف أصبحت يا هذا في مهب جميع الظنون؟

كانت مخطئة في كل شيء بطبيعة الحال.

أنا لم أعقد معها أي عقد، ولا كان لي بها إلا ذلك الاتصال الوهمي الذي انبثق، في لحظة ملؤها الترقب، من خلال التراسل. كانت لي أوهامي بالطبع في بداية الأمر، لعلي كنت أريد أن أجعل منها امرأة الصدفة الممكنة، المرأة التي يمكن أن يقودها مصيرها الباعث على التحول وانتظار المفاجآت إلى هول رجل، أي رجل، وأن ترى في ذلك الهول مستقرا لأحلامها. أدركتُ، مع لهيب التراسل البدئي، أنها مرتبطة لا تبغي لذاتها فكاكا عن كريم السعداني، ذلك الرجل الحليم المُوَدِّع الذي كان بدنه العليل، في ارتباك، ينزع إلى تحلل. قلتُ لن ولا

يجوز أن أشرك به، وأن تشرك به هي كذلك، ما دامت تعلن جهارا في الأقوال والأشعار أنها امرأته الخالدة التي لن تقبل بغيره. لماذا كانت تتكلم جهارا هكذا من على منبر اليقين الجاف؟ من كان يُوَسْوِس لها: البديل، الخلود، الارتباط النهائي، الشعر المحرّق الذي تستبسل فيه العواطف بذلا؟ كيف لم تكن تدرك، وهي التي كانت تعرف، أو صارت تعرف مع تقدم المرض في جسد الرجل، أن الأحلام قد تكون ربيبة هذيان، الهذيان سُكر ليلة بلهاء، دوخة مريحة في ملابد الاستسلام، انفعال فيٍّ استرخاء في توتر في سفر في انهيار. ألم تكن تعرف أن في ثنايا الانهيار حقيقة واحدة هي الألم. الألم فقط.

لقد حُمّ الأجل ...وسأعرف وأنا في رحلة قادتني إلى القاهرة، في نطاق العمل الذي أقوم به في الشركة، أن كريم السعداني، كما قال لي سليم في الهاتف ملسوعا، سوف يودع قريبا (كيف يعرف هذا؟). ثم أضاف أن الأمل معدوم، والأجل حسب الأطباء محسوم. لا أحد يقترب من المصحة، لا أحد يجرؤ على الزيارة، ولن يظفر أحد بتلك الرؤية الأخيرة المذكورة في كثير من الأمنيات. فهمت من سليم أن الذين كانوا يعسكرون قرب المصحة في الأصباح والعشيات، وهو يحتضر، أضحوا موقنين إلى أن

مصير الرجل قد قَرُب، بل ولم يعد بينه وبين الحياة التي كم كان يود التمتع بها، بعد أن استبد به الحرمان، إلا الموت. وأنا عائد من مطعم (الكرنك)، هما يومان بعد ذلك ربما، يومان تقريبا على ما فهمت من سليم نفسه، وكنت قد كابدت فيهما، بدون إدراك واضح، الحرارة (ربما المرارة) المقرونة بالتلهف، وأنا أيضا على مقربة من (مترو العتبة) في شارع (الجمهورية) بعد أن ألقيت نظرة تحية على تمثال (إبراهيم باشا) كما أذكر، وإذا بالخبر المفاجئ، الجاف في الحقيقة، الذي تهجاه سليم، الخبر الذي نزل علي كالصاعقة تماما، يقول لي: لقد مات كريم، لقد مات كريم السعداني قبل قليل. محدثي في الهاتف الذي يغرق صمته في مسمعي يقول لي بالحرف: قبل قليل، ربما في السابعة مساء. هل ستأتي؟ السابعة مساء، أو هي العاشرة ليلا حسب توقيت هذه القاهرة. أية طائرة يمكن أن تفلح في اختصار المسافة إلى قرب يا سليم ؟ ثم أيكون من المناسب أن أعايد جثة هامدة ؟

حاولت الاتصال بحنان الداودي التي كنت أعرف أنها في المغرب لا تستطيع الاقتراب من المصحة، لأن الذين تولوا العناية بكريم منعوا جميع الزيارات التي كانت تأتي إليه محملة بجميع الأشواق والنداءات والأدعية... والحب أيضا، حبها هي بالذات. كانت

في المغرب غير أنني لم أستطع الاتصال بها نهائيا لمعرفة باقي التفاصيل منها هي بالذات التي كانت تعشق الرجل عشقا وهو يصدها صدا ولا يزداد ارتباطها به إلا ارتباطا.

لم يكن موته مفاجئا وإن بدا متعاليا في الغياب. كان متوقعا من قبل الجميع قبل فترة...تلك التي اعتبرها المقربون إليه، حين قدروا وجوده بينهم على نحو ما كانت تقدره حنان الداودي، قصيرة لن تسمح مطلقا بالصداقة المستحيلة. هكذا الإنسان إذا سقط علت الألسنة من حوله بالتشفي وإذا مرض بالموت... الإنسان ما أشد قسوته على نفسه وعلى الحياة معا.

راجعتُ ذهابه إلى باريز. تدهور صحته وهو الشاهر دوما لتلك القدرة الخبيئة على الاحتمال، على الحياة أيضا. وجوده في مصحة قريبا من وحدته المطلقة التي كانت قد غدت مزمنة، من صمته التام أيضا. راجعت تلك الأيام الباردة في باريز ...التي كنت أنوي زيارتها وفي نيتي أن أراه فلم أر في خيالي عنه إلا الألم المرفرف من حوله وفي بدنه بالذات. راجعت عيادة أصدقاء وصديقات جاءوا إليه من المغرب في اللحظات العصيبة. ثم كانت العودة. العودة التي كانت حتما بسبب اليأس الذي استشعره الأطباء عندما خلصوا إلى قولهم: إن جسمه لن يتعافى مطلقا، وروحه سوف تتسامى في

الغياب. راجعت عودته إلى المكان الوحيد الذي سوف يكون نهاية رحلة. كانت الأخبار اليومية المحملة بجميع المعاناة تخرج تباعا من المصحة رغم الحراسة المضروبة من قبل البعض عليه. الأخبار التي تقول، كما كان يردد سليم: إذا الموت أبطأ في الوصول إليه فلعَطب أصاب الوقت فقط. جاء الموت في ميقاته إذن، وأخذ معه الوديعة التي ملت الانتظار.

عندما أنظر إلى الوراء، إلى العلاقة، إلى تلك العلاقة الوهمية، أجد أنني بدأت هائما أو ربما راغبا في اصطياد خليل، واشتد لهيب عواطفي في بعض اللحظات، وتماديت كثيرا في الاختبار، وكانت لي بعض الحقائق التي ألزمتني بمراجعة بعض المواقف، ووددت منها أن تكون لي، ولو بالطريقة الغامضة التي كنت أتقن صياغة مفرداتها، وبسرعة غير مقدرة، أو بسرعة مقدرة العواطف الجياشة، أصبحت منجذبا أكتب إليها وأكتب وأكتب لعلها تفهم أنني أكرس جهدا في التعبير لها عن العواطف التي تأسرني، أي تلك التي كانت تأسرني في ذلك الوقت. ثم وجدت أن العلاقة في تلك الأيام استمرت زمنا دون أن أرى تلك المرأة أو أشعر بها أنثايْ... إلا من خلال الصورة التي استَبَقَتْ بها مريم البدري، عندما أرفقتها مع رسالتها الإلكترونية، جميع التهيؤات التي كان من الممكن

أن تداهمني في خلوتي، وأن تنشأ كذلك من خلال الافتراضات التي قد تتزاحم في المخيلة.

تخيلت أنني التقيت بها في باريز. مجرد وهم لا اعرف إلى اليوم كيف أقنعتُ به نفسي وما التقيت بها في باريز. كانت قد تحولت إلى شبح، ولم يفارقني شعوري بالاستحالة المطلقة لأنها لم تكن لي ولا كنت راغبا، رغم جميع التصورات والأوهام، أن تكون لي. ربما لأن كريم السعداني في تلك الأثناء الأولى لم يكن بعدُ قد غادر دنيانا وشعوري أنا، بعد أن مرت به الالتهابات، قد غدا فاترا بعض الشيء. في تلك الأيام أصبحت أفكر في العودة إلى مواقعي، موقعي بالأحرى، قبل أن أسقط تماما في النهاية، أو في البداية، ما الفرق، التي كانت قد سقطت فيها علاقتي السابقة بمريم البدري، أهي علاقة واحدة فقط تلك التي سقطت؟ من الصحيح أن علاقتي بهذه المرأة الممكنة، هكذا، مريم البدري، لم تنقطع إلا لسنة أو يزيد قليلا، وهكذا عندما داهمني الشعور بالحنين الجارف إليها لغير ما سبب واضح في تلك الأيام الحالكة في حياتي الخاصة، قبل سفري النهائي إلى مدريد، كتبت إليها بنوع من الود، لا راغبا في استعادة العلاقة فهو أمر مستحيل تماما، بل فقط للتعبير الغامض لها بأنني أخلصت في الحب أيام أن كان الشعور فياضا

بكيانها، وأنني اليوم، وها أنا المودع بلدا يرهقني، لا أريد منها إلا أن تكون سعيدة بحياتها الجديدة، راجيا أن تذكرني بخير. ولكن، لماذا هذه العاطفة بالذات؟ أعرف، لأنني خرجت منها إلى حنان. واليوم لو شئت أن أفسر نوعا ما علاقتي بحنان الداودي لقلت إنها مرت، فيما يبدو لي، بثلاث مراحل متدافعة: اللهفة والقرب والإجفال.

# اللهفة

أجدني ملزما، وكم حاولت مداراة هذا الالتزام الخانق، بالحديث عنها للتخلص تماما من آثارها الباقية في نفسي، أكاد أقول تماما كتلك الآثار التي بقيت في نفسي من تجربة العلاقة مع مريم البدري... اللهفة، التلهف، أي نعم، عندما تستشعر، بحاسة الرجل المحروم حرمانا دهريا، أن المرأة تخيم في أفق ما على مقربة أو على مبعدة من الشهوة، وأنها يمكن أن تسقط عليك من عل، فكيف لا تكون في الموعد تحت الشجرة التي أنزلت التفاحة على عالم الفيزياء وهو في استرخاء لا يدرك للجاذبية معنى أيها ...الرجل أنا ؟ اللهفة، لعلها لم تكن حارقة أو جارفة، لأنني لم أكن قد تخلصت بعد من الأثار السابقة التي تركتها في نفسي علاقة أخرى، غير

أنها كانت موجودة لأنني كنت أريد التغيير أيضا، أن أشعر في الوحدة التي داهمتني في تلك الأيام الأولى، وأنا في المهجر، أن لي امرأة تتلفظ، ولو بلكنة كبرياء تلك التي قد لا توجع لسانَ رجل دَرِب، بلفظ الحب المبين. هل الحب مبين هذا الذي رثاه بالحرق المضمخة بِحَرِّ الهوى التقاة والفُجّار؟، لفظة أخرى تستدعي الحنان المخبوء، تستدعي الأوجاع لكي تنام في حضن منفعل. هذا هو المعنى الذي أعطيه للّلهفة التي استقرت في كياني يومها وأنا أكتب وأكتب لها جميع الرسائل الإلكترونية الهادئة والمتوترة والمنفعلة والراجية والمرتبكة الملأى بالألغاز في كثير من الأحيان، وبالإشارات الصريحة أو الغامزة. لعلي كنت أكتب لها نفسي كلها بالانفعالات التي تطرأ على الكيان في تلك اللحظات الموجعة التي نسميها في عز الوحدة والاستسلام قنوطا. ومن الصحيح أنني تلقيت منها في تلك اللهفة المغرقة في الشجون والظنون بعض الإشارات، أظنها كانت إشارات غامزة تلمع بالرغبات، بل البيانات المتدافعة المتدافقة، بعضها كانت نفحاتُه السُّعار، التي قالت لي بوضوح بيّن إنها في الطريق إليّ لا يسعها إلا أن تتخلص من بعض الضغوط النفسية التي تفرض عليها

التحفظ. هذه المرأة، كما خلتها، كانت من الغموض وأنا كنتُ من التناقضات، ولو كنتُ معها صريحا منذ البداية، كما أنا الآن مع عواطفي بالفعل، لما حارت لهفتي شهورا في التوقعات. وماذا يفيد الآن أن أكون صريحا مع عواطفي؟.

# القرب

أحسست، في المرحلة الثانية، بالقرب الشديد منها، وهذه الآن كلها ذكريات. شعرت بالقرب كما لو أنني كنت فقط في حاجة إلى رسالة من مريم تشير علي فيها بالمترجمة لكي أشرع في حياكة التجربة طبقا لأوهامي الخادعة.الأوهام الخادعة تدعوني متلهفا لارتياد المغامرات الملغزة. كلمة تلو أخرى، راغبا فيما يشبه التداعيات أن تدرك تلك التي ستصبح في رسائلي المتلهفة حنان الداودي، منذ الكلمة الأولى، أنها ستكون المترجمة بالفعل لعمل أدبي، وهذا ما ستقوم به لفائدة ناشر كُتُب ولست إلا وسيطا، ولكنني أريد منها أن تكون أيضًا مترجمة للأشواق التي يمكن أن تنمو بيننا، أنا من هنا وهي من هناك، إلى أن يحين موعد لقاء نختبر فيه لوعة حب إن كان قابلا للاختبار. حين أفكر مليا في تلك الأيام أدرك

بالفعل بأنني كنت أجتاز مرحلة اغتراب. القناعات السابقة طلقتها، الأوهام الجديدة أمجها، الصداقات لا ترضيني، العمل ينتشلني من الذكريات، المدينة تخيفني لأنها مجال وحدتي وظنوني... لا سبيل أراه إلى شيء. وهكذا انطلق القرب المفترض. أقول المفترض لأنه ظل كذلك إلى أن ابتردت ذكريات المرأة التي أوجدتها من عدم لكي يكون العدم، أقول الانتحار، رفيقي: خاطبتها في البداية بحياد ماكر، هذا مع أني لم أصطنع حيادا ولا مكرا، ولما استجابت للرسالة الأولى التي كانت من نسيج البواعث الداعية إلى الارتباك أمام مجهول لا نعرف سره، لا نعرف سر المرأة، فهمت أنها تلوح لي بيد ممدودة للتعارف. ستصبح رسائلي التالية إليها، أنا الذي كنت راغبا في علاقة شديدة الحب لكي أنسى انكساراتي، بمثابة امتحان. فاجأتني، وهي المفاجأة المذهلة بالطبع، بأنها على علاقة بكريم السعداني، وأنها ربما قد تكون هي تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تأتي لزيارة سليم في ذلك المكان الذي وصفته في إحدى رسائلها بالمُعَقّد والسهل في آن وأنها وأنها... أأكون قد سقطت هكذا في كمين الذكريات المُرّة منذ الوهلة الأولى؟.

مضت الشهور الأولى إذن في القُرب... قُرْبِ التراسل لا قُرْب الجسدين، قرب الكلام لا قرب

النظر، قرب الحرارة التي تنسجها المعرفة الأولى لا تبَرّم تلك اللحظات الثقيلة التي تأتي على الإنسان بعد ملل. ولما ازددتُ، أو هذا ما كنت أؤكده لنفسي، معرفة بها، من خلال الأسرار التي أطلعت عليها، بعث الشك فيّ، هكذا بدون ترو، موجة من تردد حسبته، في أول الأمر، من أثر الظروف النفسية والفكرية التي كانت تنتابني في الشركة التي أعمل فيها، وفي المدينة التي آوت غربتي، وفي غياب جميع العلاقات الممتعة، وفي الهروب الذي أعشقه كذلك. التردد، أي نعم. وكيف لا وهي «الحبيبة»، كما كانت تقول عن نفسها، التي كانت «كرياتها الدموية» مكونة من اسم كريم السعداني، وبدونه جسمها يتحلل كما كانت تقول في شعرها اللاهج بالحب. هذه امرأة من نار، وأنا لا أحب الغضب ولا الاشتداد العاطفي حين يكون آسرا ولا الندرة العاطفية حين تكون باردة. هذه امرأة من لهيب. وكيف لا وأنا أعرف سليم، وكيف لا والكلمات التي ردّدَتْها مريم البدري ما زالت ترنّ في مسمعي بصوتها الذي يقول لي محذرا: لَا يا سعد، لا أريد لك يا سعد، أو لا أريد لحنان الداودي، أعز صديقاتي، أن تغرق في تجربة جديدة قد تكون أفشل من الأولى، لا لا أبدا.

لقد أصبحتُ، بالتأكيد، في نفس الدائرة ذات العلاقات القاتلة، أو المجنونة، أو المربكة، أو المتلهفة حتى، أو المتجاسرة على الرغبات الخاصة التي لا يجب أن يبلغها صائد، أو المتهالكة من كثرة الحرارة المنبعثة من فرن لاهب يتراقص حوله المتعالقون فيما بينهم وهم لا يدرون أنهم في قعر الجحيم. هكذا أصبحتُ. العلاقات التي هربتُ منها إلى مدريد، العلاقات تلك المدمرة من حقارة. كيف لا إذن؟.

من هنا بدأت تلك الحركة البطيئة المحكومة بعواطف التناقض، بعواطفي المتناقضة، الذاهبة بي إلى حدود اليأس أو إلى أبعد منه إن أنا عارضت في جبروتها، الجبروت الذي تتدافع فيه موجات الكراهية والحب، لا بل التبدل، قبل الكراهية، الذي جعل التهابي لا يقوى كثيرا على احتمال البرودة الإنسانية التي قابلتني بها في أطوار العلاقة المتتابعة. هنا أريد أن أقول شيئا محددا: أنا لم أكن أريد منها حبا، ولا كنت مطمئنا أبدا إلى ذلك القرب الرومانسي الذي يكدر العواطف ولا يشفي الجسد في جميع العلاقات المعروفة. كنت أريد فقط امرأة تفهم أن المعرفة يمكن أن تقود إلى الحنين المتبادل، وأن الحنين، من طرفي على الأقل، قد ينطوي على المفاجأة، وأن المفاجأة يمكن أن تقود إلى جميع الاحتمالات المتفاعلة في

الرغائب... وهكذا، بذلك الغموض الذي لو قال، أو قلت أنا كذلك، معانيه التامة لما افتضحت أسراره، لما افتُضَّت بكارته.

حين قرأت إحدى رسائل حنان الداودي أحسست بأنها تخاطب رجلا قد لا أكون أنا إلا نسخة عابرة أو مُتَوَهّمة منه، ظلا فاترا لهامته، قناعا لصبواتها واستعارة لأحلامي. هل كان الرجل الذي به توحدتْ ثم سَمَتْ إليه هو الرجل إياه الذي تقول له : «**سنتان مرتا على تلك الليلة الفريدة، أنت في جسدي وأنا في جسدك. فهل كل ما عملنا من أجله أننا وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم من ضياع. كم أفتقد حبيب تلك الليلة التي لا أعرف كيف وجدت نفسي في فراشه، تحت الغطاء، وجهي في وجهه وقلبي في يديه. لقد أصبحت طفلة في فراشك أتملى صورتك باندهاش غريب. لقد استعدت طفولتي في فراشك، فلماذا أصبحنا على ما نحن عليه اليوم من ضياع ؟ وهل كنا في النهاية أيام تلك البداية ؟**» .ثم مضت تتكلم عن السعادة التي كان يحس بها كريم السعداني، لأنها عنه تتكلم في الحقيقة، أيام أنْ كان، كما تقول، في أحضانها. نعم، تقول له حرفيا: «**لقد كنتَ سعيدا، نعم كنت سعيدا بالفعل، وكنت أنا أغزل وحدتي دون أن أعلم**»، متسائلة : أين أصبحنا الآن بعد أن علقتُ عليك أحلامي وجواهري وطاقاتي وحبي أنا الطفلة التي كنت في سريرك لا أعرف شيئا.

وحين خاطبته مباشرة قائلة له: أنت لست إلا النسيان الذي لا يحتمل إلا ذكرياته الخاصة أو نسيانه الخاص. حين خاطبتُه بهذا كانت تتحايل على اللعنة الخبيثة حتى لا تفلت من بين أصابعها المتوحشة.

رسالة المرارة، طافحة جاءت بالهوان الذي يخالج المرء من جراء الأثر الكاوي للذل الرومانسي ...في علاقة حب محطّمة. الذي ليس هو الذل المهين الناتج عن هزيمة منكرة في مبارزة تنافسية. لا. وأقسى ما في هذه الرسالة أنها لفظت قرب النهاية كُلَّ قلبها المكلوم الجريح قائلة: «**الطفلة ليست إلا كتلة من القلق والأسف والمرارة. صرخة ذاوية وأليمة لن تسمعها. غضب عنيف لن يهدأ. لقد بقيتُ عارية لا تسترني أبدا ليلة عرس غير شرعية لا أذكرها إلا أنا وحدي. اذهبْ إذن واتركْ روحي تعبُر القفار ليس لها من مرشد إلا جسدها الذي يغتسل في الرمل والرعود التي تشبهك. اذهبْ يا حبيبي، لقد كان عليك أن تحبني كثيرا في تلك الليلة الفاجرة التي أتممت فيها سنواتي الثلاثين. كان من الممكن أن تهبني ما كنتُ أستحقه، وأن تعمل لمرة واحدة على الأقل من أجلك لا ضدك**».

ربما كانت الخاتمة الثانية، المنفصلة، التي وقّعتْ بها هذه الرسالة، بعد أن أفرغتْ ما في جوفها في هجاء الحبيب الغادر أو في مدحه، أبلغ ما فيها بالنسبة إليّ. أحسست أنها تخاطبني الآن مباشرة، أخيرا، من خلال

أبيات في منتهى السحر أنشدها (راينر ماريا ريلك) تقول في بلاغة ما كنت أود لو ترجمتُ به حالتي : (**الوحدة تشبه الشتاء، تصعد من البحر لملاقاة الأماسي، والسهول البعيدة المتفرقة، تذهب إلى منتهى السماء التي تتملكها، ثم تهمي على المدينة، تتوزع على الساعات اللاهية، حينما تستدير الشوارع نحو الصباح، وحين تفترق الأجساد التي لم تتلاق عن بعضها منهكة وحزينة، وحين يضطر البشر المتباغضون للنوم معا في فراش واحد، فإن الوحدة تذهب مع الوديان**).

# قبل «الإجفال»

حلمت. حلمت بالفعل، ولا إخالني إلا موقنا إلى حلمي، بأنني في ارتحال لا تشدني أعضائي الجامدة أو المرتخية إلى باريز. لا أذكر في الصحو أنني غادرت مكانا أو كان لي الزمان رفيقا، غير أنني أرى لقاء ما يدعوني إليه. لعلي وأنا في سهوي كنتُ أتحفز في مكاني. أرتجي المرأة الوهمية أن تقترب من المكان الذي واعدتني فيه باللقاء. حلمت بأن اللقاء الباريزي ربما كان في شهر فبراير، ولعلي أردت من خلاله، في الحلم، التعرف عليها هناك بعد أنْ لم يتيسر اللقاء بها في أي مكان آخر... إلا على «وجه» الرسائل الإلكترونية الكثيرة، المتدافعة في بعض الأحيان، التي كانت تصلني منها، وكنت بدوري أبعث بها إليها تمشيا مع الإيقاع الذي فرضه غموض العلاقة والاحتمالات التي انبثقت من توتراتها المفاجئة، التوترات الإيجابية

بطبيعة الحال التي كانت، فيما أحسب، تحسس كل واحد منا، وأجيز لنفسي أن أتكلم عنها، بأنه ينسج علاقة مختلفة طابعها التجاوب الفوري الذي أتى في أعقاب تخمينات ومصادفات وارتباكات.

كانت تلك الأيام في الحلم باردة لأننا كنا في منتصف فصل الشتاء الذي احتبس فيه المطر واضطربت فيه الأنفاس. سمع المدريديون مدينتهم، عندما جفت مدينتهم تحت أقدامهم من كثرة ما سمعوه من تهديدات وتوقعات، تقول لهم بجميع اللغات المعروفة لديهم، إن إسبانيا تعيش أسوأ فترة جفاف في تاريخها الحديث. لم ينزل المطر كما كان من المتوقع إذن، على الأقل في مدريد، ولذلك توالت تلك النداءات متوترة تُفهم الناس، بتوسلات حارة، أن التقشف ضرورة في استعمال المياه الصالحة للشرب، بل وعُلم في الأخبار أن رئيسة الحكومة المحلية ذهبت إلى إسرائيل لاستجلاب تلك الوسيلة، هكذا قالوا، التي تَمكّن بها الإسرائيليون من ملاحقة السحب في الأجواء العربية وإسقاط مياهها على الأراضي التي كانوا قد استبدوا باحتلالها القاسي قبل ذلك بعقود من الزمن. أقصد بمرارة وخيبة: فلسطين.

ومع ذلك قررتُ واهما وبدون تردد أن أسافر إليها، ولست أعرف تماما إلى الأن كيف يسَّر لي

الحلم سفري قطعا. إنني أستعيد في حلمي هذا جميع التفاصيل تقريبا التي حملتني على السفر. لا أتكلم عن الاستعداد النفسي، فقد كنت راغبا في التعرف عليها، ولا أتكلم عن المفاجأة الممكنة، فقد كنت أريد الوقوف بنفسي على بعض الانفعالات التي أستشعرتها في الكلمات المتوترة الجارفة في رسائلها، ولا أتكلم عن تخميناتي الكثيرة التي عقدتها ساهما بالفعل على رموز وإيحاءات منفلتة من العبارات التي كانت تحدثني بها. أتكلم فقط عن حالة واحدة أعقلها ولو في غموض انتابتني بالفعل: أنتَ في حلمك يا هذا ذاهب إلى باريز التي لم تر معالمها منذ أربع سنوات في إجازة، أو هذا على الأقل ما فُهم من ذهابك في الشركة. ستقول لهم إنك سوف تعود كريم السعداني في مستشفاه الباريزي. ولكن من يصدقك ؟ هل تصدق نفسك ؟ عليك إذن أن تسيطر على جميع الانفعالات التي يمكن أن تعصف بك، فأنت لست عاشقا وإنما أنت زائر تبحث في الظاهر عن رجل أسقمه المرض للعثور، في سريرتك، على امرأة من أعضاء لا من كلمات. تذكر يا سعد أن الفضيحة تلمع في العينين والجفاء كذلك، فلا تستعجل لهفتك ولا تشهر طمعك المتلهّف.

هل كان من المفروض أن أتوقع كل شيء في الحلم؟ أعني بما في ذلك التفاصيل الأخرى التي لم أفكر فيها، تلك التي فكرتْ فيها هيَّ نفسها. لستُ أدري أم أدري؟ أعلمتُها، أو هذا ما أتشبّث به في حلمي، حين قلتُ لها: إنني قادم. قالت لي: لن أخبره بمجيئك إلى هنا، هل تعلم؟ هي كانت تعلم أنها لن تخبر كريم السعداني بالطبع. بدا لي الأمر، من باب الخيانة، مقبولا لأنني سوف (أسيطر على جميع الانفعالات التي يمكن أن تعصف بي)، وما قناعتي إلا أنني زائر لا عاشق.

لا أذكرني الآن في هذا الحلم المستهام إلا وقد استدرتُ مباشرة مع شارع ربما يسمى (غرونيل) Grenelle فوجدت نفسي على مقربة من مسرح (مايول) في مقابل مطعم (الفيل الوردي)، أو شيء من هذا القبيل، وقد تَزَيّنَ، كما كان يخيل إلي، باللون الأخضر الغامق الذي يوحي للكثيرين بأن الإنجليز هم أول من ابتدع الهدوء المعنوي الدال على البرودة المعتمة. يجب أن تكون هناك حنان الداودي واقفة مرسومة مخططة محنطة...لست أدري. هكذا قلت لها في الهاتف النقال، ولعلي سمعت من هاتفها شيئا شبيها بذلك (سوف أكون هناك في الوقت المحدد بالضبط). اليوم يوم جمعة والحركة البطيئة التي دبت

بين الدائرتين السادسة والسابعة أشعرتني بالبرودة، الموسم كذلك. باريز هادئة، ولست أدري كيف تصورت هكذا أن المسلمين يؤدون الصلوات قانتين.

في بداية الشارع إياه (غرونيل) Grenelle سرت بتثاقل محزن حيث كنت متلفعا في الجاكيتة الجلدية التي اشتريتها مزهوا من محل (فيرداي سان ريمو). لم يعد الفرنسيون يرون المهاجرين بأي منظار، فهم لا شك في خوف مزمن لم يعد يسمح لهم بالرؤية الواضحة الصافية الناصعة. بدا لي، لأول مرة، أن الملونين يحتلون جميع الفضاءات، مجرد وهم ربما، ولكنهم كانوا هناك. أنت لا تستطيع أن تتجنب حضورهم الواضح تماما في جميع الأماكن البارزة وغير البارزة كذلك. كدت أقول غير البارزة بالذات. ما بال الفرنسيين أسلموا هكذا مصيرهم للملونين وللغرباء ولي بدرجة معينة من الاستسلام؟.

تغلبت شيئا ما في حلمي على حالة الانتظار حين أدركت أن الانتقال في باريز صعب في بعض الأحيان، وأن على الراغب في الوصول إلى مبتغاه، في الوقت المناسب أو المعلوم، أن يحسب لجميع المفاجآت التي يمكن أن تفاجئه في كل وقت وحين حسابا. سرت في شارع (غرونيل) Grenelle بدون هدف. بدون هدف آخر غير ما كنت أستهدفه. كدت أستدير

أكثر من مرة لتقديري أن حنان الداودي ربما تكون قد وصلت. عبثا ما زال المكان على مقربة من (الفيل الوردي) خاليا لم يستضف بعد هيامها الذي كثيرا ما حدثتني عنه في الهاتف النقال ...وفي جميع الرسائل الإلكترونية التي كتبتها لي بالذات. شرعت في العودة نحو (الفيل الوردي) حين بدأ الهاتف يرن رنات متلاحقة في جيبي. هي، رقمها فيما يبدو، ألو، أهلا... حنان أنت... بعد أن تعرفت على صوتها الدافئ الذي كان يصلني هامسا: أنا في الطريق إليك (تقول، هل كانت تدرك أبعاد ذلك؟)، على بعد مسافة، المترو، تعرف، في الحال، انتظرني حيث اتفقنا، في الحال، نعم (الفيل الوردي).

تصورت في لحظة واحدة لم تمتزج في صفائها المعنوي بأي هاجس غريب أنني سوف أرتمي عليها وهي مقبلة نحوي. تماما كما لم أعرفها مطلقا، أو كأنني أحمل إليها بلادا قصية من الأشواق الدفينة التي انعقدت في مكان ما من قلبي. الأشواق إياها التي لا تفارقني وتقول لي في كل حين: إنك ربما من الموعودين بالحب المتهيج المندفع الذي تتكلم عنه الروايات والذي ربما كان لك في المراحل الأولى من العمر، وبالتأكيد حين صرت تدمن قراءة واستفهام الرسائل الآتية إليك منها، ثم حين صرت تكتب لها

بقدر من التلعج الذي لم تكن تعرف مصدره الدفين. هل أنا الذي أكتب إليها أم أقرأها فقط، هل الرسائل جميعا أنا وهي تكتبنا بما لم يخطر بعد على خاطِرَيْنا؟ أم أنني دائما ذلك المندفع الذي لا يعرف الحدود بين قلبه وعقله، ولا يرى، أو يرى حقا، في الآخرين مساحة من الأشواق العنيفة التي تنتابه هو، الحجم الكافي من العوائق التي لا يستطيع السيطرة عليها مهما حاول إلى ذلك سبيلا.

شرعت أمشي كأنني في صحوي نحو حنان الداودي حين لمحت بالتأكيد أن طيفها الشفيف أخذ يقترب مني. حدثت نفسي بالارتماء عليها كما في المشهد الروائي المعلوم الذي رسمته سيلبيا جيمس باقتدار في (الوداع الأخير) وسندرا تغمس غمسا لهْفيا شفتيْها في فم مونيكا. كنت أريد الاشتباك معها، أفكر في مساحة الأحضان وفحيح الروح. وكنت بطبيعة الحال أتصور، وكأننا الآن معا في نفس المشهد الروائي المعلوم، أنها سوف تندفع نحوي، تلتهم رغبتي، تحتويني، تحاذي مياهها رغوتي... إذ بارقة وحارة عواطفها تلك التي كانت تسمو بي في رسائلها الكثيرة إلى مدارك العشق، وما كان لي في حُمّى حلمي إلا أن أشتهي أو أنتهي. بيني وبينها الآن فقط تلك المسافة الفاصلة بين الاضطرابات التي

تخالجني و(الفيل الوردي) الذي ربما كان يسخر من الاندفاعات التي تدفعني نحوها بقوة واضطراب. وأمام ذلك (الفيل الوردي)، حين كان للقاء الموهوم قبل حين طعم الاشتياق، حاولت أن أضمها إلي، ولكنها لامست، بخفة مفتعلة، برودة وجنتي اللتين كانتا في تلك الأثناء تبحثان عن دفء في المناخ الباريزي شديد الوطأة على الأحلام... فاختفت أو رأيتها تختفي كأنما تحولت إلى بخار داعبته ريح خفيفة فأخذت تنثره في الناحية وهو ينتفش انتفاشا.

# الإجفال

هل وجدت المرأة أم أنني اصطدمت بالمحطم الآن من الوهم؟ أما الحلم فهو الحقيقة التي أستدلّ بها الآن على جميع الأمنيات المغدورة والمجهضة والمقموعة ...التي أجّلتُ حرارتها في نفسي إلى تاريخ لم يأت أبدا.

عندما أتصور أنني كنت قادرا على الإجفال، كما كنت من قبل قادرا على الإقبال، أحار في تفسير الدواعي التي صيرتني، في الحالة الأولى كما في الثانية، مقبلا ثم مدبرا لا أعرف للمسافة قياسا في الذهاب ولا في الإياب. أيام معدودة، لا بل أكثر من الأيام المعدودة. شهور كثيرة، هي الشهور الكثيرة بالفعل التي مرت عليّ أبحث عن مسكن تلبد فيه عواطفي النابحة بجميع التوترات. دعونا نتكلم عنها كتوترات مريبة لأنها لم تكن تعرف، هذه التوترات،

مصدر طيشها إلا من خلال الصورة التي أدركتْ مريم البدري، صديقتي القديمة، بأنفها الأنثوي الحساس أنني قد أدشنُ معها مغامرة التوقعات، رغم التحذيرات العجيبة التي أطعمتني إياها كأنني ما زلت لها، من أيام العلاقة المتماوجة، حبيبا، كما كانت تقول للكثيرين، وما أنا الآن إلا صاحب صداقة، بل أنا مطرود في الواقع من جنتها منذ أن أدركتُ، بنوع من الخيبة التي يُحْدثُها الفقد، بأنها كانت لي وجهة وذاتا وملاذا. ماذا أقول؟ أنا مطرود بالفعل من جنتك يا مريم، ولكنني أقتلي على نار صديقتك حنان إذنْ. علي أن أفهم نهائيا بأنني مطرود ومطارد في نفس الوقت.

عدت من باريز كما لم أذهب إلى (عاصمة الأنوار) في تلك الأيام.

لم يكن البرد قد غادر مدريد نهائيا. أود أن أقول إنني أحسست في الحلم خلال الذهاب وأثناء العودة بالانسلاخ، بأن شيئا ما في الأحشاء البعيدة قد انهار، قل: من الغدر، من إحساس بالمفاجأة، من ذلك اللقاء المفترض، من الأفكار التي انحبست في اللغة، من كل شيء. أحسست أثناء العودة التي كانت في الواقع بدون ذهاب بأن الرسائل الكثيرة التي كتبتها إليها لم تصل، وأن رسائلها إلي شبيهة بالخذلان. وأحسست

أكثر أن الحلم قال لي: المرأة التي بذكرها تلهج ليست لك، ولم تكن لصديقك كريم السعداني إلا ظلا.

من الصحيح أن حنان الداودي كانت تتآلف تدريجيا مع جميع الصدمات التي توالت عليها، غير أن ذلك أيضا جاء بعد أن كان كريم قد غادرنا إلى الأبد، ولم أكن بعد أنا قد أوجدت تفسيرا لحالة الإجفال التي صارت تلاحقني كلما فكرت فيها. أذكر أنني هاتفتها من القاهرة بعد أن أخبرني سليم بالموت الذي اختطف كريم، ولم أظفر منها بأي صوت، هل كانت مفجوعة تداري أساها الجارف؟ ثم أذكر أنني كتبت إليها بعد عودتي من تلك الرحلة، ولكن الكتابة في هذه المرحلة كانت قد فقدت كل دَفْع يغريها، ثقيلة لا تحمل الكتابة إليها أي شوق ولا عاطفةً ولا تحيات، أقصد تلك التحيات التي كانت من قبل تنطوي على عشق ملتبس ربما. ولما أحست، فيما يبدو، بأن عليها أن تقول شيئا على قدر معين من الخطورة كتبَتْ إلي، في اضطراب وحيرة، للحديث في الواقع عن كريم السعداني بالذات والصفة[1]. لم تغضبني الكتابة في أول

1. «لا أعرف بماذا أجيب!... نعم إن المأساوي جانب من طبعي، أو للأسف ليس جانبا منه، لست أدري! نعم لم أعد انتظر شيئا، والمجتمع الذي أعيش فيه يصيبني بالإحباط والغثيان بسبب الكذب والنفاق. وقد أصبح كل ذلك بعد ذهاب كريم بديهيا، هذا الذهاب الذي ما زال طريا،

الأمر، هذه الكتابة المتلهية بالقيم الأخلاقية والروحية، ولم يثر فيّ انحيازها النهائي لجهة كريم، الذي كان قد قضى نحبه في تلك الأيام، أية عاطفة، بل الذي أغضبني أنها وضعت نفسها بين نارين وقررت الحسم في اختيارين علما بأنها لم تكن تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، أعني أنها كانت مسلوبة الاختيار فاقدة القرار... إلا في قرار واحد انتحرت به. لم يكن كريم السعداني يعنيني في تلك العلاقة على أي نحو. الرجل الذي عرفته خافت الأسرار، دافئ الانطواء، حزين الكبرياء، باهت الصوت، كان في حاجة إليها، في تلك الأيام بالذات، أكثر مني ومن أي مخلوق يعبث بالمنافسة. أنا نفسي، بعد أن مرَّتْ علي تلك الاندفاعات الأولى بشيء من المعاناة، لم أكن قد أعلنتُ عليها حبي بعدُ ولا قلتُ لها خفايا كبريائي ومواطن ضعفي ومراقد شهواتي، لا

---

ما زال طريا بالنسبة للذين كانوا يقتسمون حميميته ويعدون الساعات والأيام بل والدقائق، نعم. والذي أعرف أنه كان يريد لي أن أعيش بعده، أن أستمر بعده وهو ما أريده أنا أيضا لنفسي. معك الحق وربما حدست ذلك، غير أنك لا تستطيع أن تقيس مدى الحياة التي تثوي في هذا القلب الذي لا يود النظر إلى الحياة بالفعل من خلال الخيبة. أتراني صريحة أكثر من اللازم؟. أنت صديقي لا أستطيع أن أخفيك أنك تهزني هزا، بل وتحرك في أحشائي حمولة من العواطف الجياشة، غير أنني، فيما يبدو، أنظر إلى المسألة من زاوية أخلاقية ربما. إنك صديق كريم أيضا، ولن يرحمني المجتمع الذي لامني في السابق لأنني أحببته وسوف يلومني في اللاحق لأنني خنته...»

بَعْدُ لم، فكيف بها تستبق دعوتي. ربما كانت القدرة الوحيدة التي يسخرها المرء بعفوية للسيطرة على أوهامه هي الاستيهام. ذلك ما فعلته حنان الداودي حين توهمت أنني مندفع نحو قلبها فشرعتْ تقيم من حوله المتاريس الأخلاقية عساها تنجو بذاتها من عذاب المجتمع والناس. هذا ما تقوله، هذا ما أفهمه، وهذا ما انتحرتْ به على الأرجح.

حنان الداودي في هذه المرحلة الأخيرة صريحة لا تخفي شيئا: أهُزُّ كيانها أنا، أحرك أحشاءها أنا، ولكنها لا تستطيع أن تفتح قلبها العاطفي، وهي الراغبة في الحياة كما كان يريد لها كريم السعداني أيضا، لأي راغب قد يكون هذا الأنا، بل هو هذا الأنا.

# الرواية

عندما كان ديوانها الثاني بين يدي قرأت إهداءها بالفرنسية متلهفا وأنا مستلق على ظهري في استرخاء وديع، ربما كان الوقت ليلا، أما المكان ففي مدينة فائرة لا تنام إلا في جفون الساهرين تسمى مدريد: «**هذا ديواني يا صديقي سعد، أرجو أن تجد فيه بعض المتعة، أو بعض ما أرجوه لك من متعة على الأقل**». ثم أضافت بعد مسافة : «**تذكرني وتذكر أنك وعدتني بالزيارة في يوم ما**» هكذا حرفيا.

2

فكرتُ: لماذا كتبتْ حنان هذا الإهداء المحايد على ورقة منفصلة ذات لون سماوي باهت، مع أن جميع الإهداءات التي تأتينا بمناسبة أو بغيرها تُحبّر

في الغالب على بياض الصفحات الأولى حتى يدرك قارئها أنه معني بالخصوصية التي قد تنسج من حوله عالما من الأحلام اللذيذة في كثير من الأحيان؟ تأملتُ: كيف لي أن أعرف على وجه التحديد لماذا فضلتْ ذلك، ولا كيف أقبلت عليه لأهداف رمزية غالبا ما كانت تتقصدها في مواقف أخرى مشابهة.

لا أستطيع أن أجزم بأي شيء، فأنا حائر بطبيعة الحال، وقد لا يكون من المهم ذلك على أي نحو، لأنني لا أفقه شيئا في التأويل أو بالأحرى في تأويل ما تبثه نحوي من إشارات. كل ما في الأمر أن الديوان الآن بين يدي، إهداؤها الخاص على ورقة منفصلة، بارد هذا الإهداء لم يكن في مستوى تلك الاستيهامات التي كانت تصْليني بها في غالب المواقف التي كانت بيننا منذ أن تدهورت صحة كريم السعداني ولم يعد لها من رفيق حنون سِواي.

في صفحة 28 تقول: «**إن قيدك يتحدى أغلالهم لكي يضيء جسدي**» فلم أفهم مرادها إلا حين وجدتها في الصفحات الأولى وهي تقصد كريم السعداني بألمها الخاص الذي فيه الحنان: «**إليك على سرير المستشفى: جلدك يسيح على عظام منحوتة من هزال**»، وتحت هذا اسمها الكامل بدون مواربة: حنان الداودي. إذن: لا يمكن للديوان أن يُهدى إهداء بيّنا مرتين، لشخصين،

ولا أن يتسع بسهولة لعاطفتين فياضتين متناقضتين. الآن فهمت!

3

قرأت عنوان الديوان«**مقبرة الأشواك**»، أكثر من مرة فبدا لي ملغزا إلى حد ما، وإن كان المعنى الذي قصدته يكاد أن يستظهر نوعا من اليأس، بل التشاؤم الذي يقول لك دفعة واحدة إن حنان الداودي لم تعد تشعر بالحياة بالمرة. لقد اختارت الرموز الكبرى لكي تلخص مأساة الحياة المتسارعة إلى جانب كريم السعداني. ربما كانت تشير بذلك العنوان الملغز أيضا، «**مقبرة الأشواك**»، إلى شيء لا يمكن إدراكه بسهولة. إنها كالعادة تحاول أن تبتعد بالمعاني إلى الضفاف الأخرى حتى لا تقيم الشبهة عليها. ربما كان المقصود بالمقبرة عالمها الداخلي الغائر الذي يتدحرج إلى الهاوية، العالم الذي كانت تضع من حوله الحجب لكي لا يراه الآخرون. أما الأشواك فهي المحن بدون ريب، المحن التي قاستها منذ أن استقر المرض اللعين في جسد كريم. غير أن ما بدا لي واضحا لا غبار عليه، في جميع الأحوال، وأنا أتصفح ديوانها الأخير، أن كلمات الرثاء تكاد أن تتفتق وقد وضعت فيها، في الحقيقة،

أقوى العبارات اللاعجة تعبيرا عن الحب، بل الهيام الذي كانت تكنه لذلك الرجل الذي استقر المرض في أحشائه دفعة واحدة. هناك عبارات قاسية فيها الحزن أيضا، غير أن الحزن هذا كان بسبب المرض لا بسبب المعاناة.

## 4

كدت أنْ أضع الديوان جانبا عندما تذكرتُ، فجأة، أن حنان الداودي أكدت لي، أكثر من مرة، في رسائلها الإلكترونية أن صدور الديوان سوف يكون بالنسبة إليها بمثابة بعث للرجل الذي ما انفكت تبكي فقدانه وذكراه بعد أن أقيمت له الذكريات ولم يعد رفاقه الذين عادوا حبها له يذكرون شيئا منه. كان كريم قد مات في العيادة عندما لم يبق للأطباء الذين حاولوا إنقاذه في باريز أي أمل في حياته. ولما مات بكاه الجميع على نحو من الأنحاء. ولما مات صارت هي من كثرة الأسى الذي طفقت تستظهره حيثما حلت لا تريد لنفسها إلا الموت. أذكر أنها قالت لي بصورة غامضة في المرات القليلة التي كلمتها في الهاتف: كفى أريد أن أنتهي. .لم أعرف معنى للنهاية التي صدرت عنها إلا حين أردفتْ قائلة: ربما كان الخوف، ولكن مم أخاف يا ترى؟.

ولكن لمن سأترك دونيا وربيع ؟ وحسبتها قد شرعت تهذي ولم يكن يصدر عنها أي أنين حتى أقول لها شيئا من مواساتي الكثيرة التي كانت ترتاح لقراءتها، ربما لأنها كانت تحب قراءة المواساة، أقول أنا.

غريب: على الغلاف الأخير شيء من ذلك: «**إنّ ألم القلق يعادل ألم السعادة الواعية بسقوطها المحتمل، القادم. وكما لو أن الحلم يمكن أن يتسع للحقيقة ففيه تتلاطم الحياة والموت، الحضور والغياب، اليقين واليأس**». تساءلتُ هكذا بتلقائية: من الكاتب؟، هل تكون هي التي تقول عن نفسها كل هذا الألم للتعبير عن التلاشي الذي يفتت كيانها كله؟ أم ناشر ديوانها الذي ربما حركته معاناتها؟ مَنْ ؟ هي المتدربة على أحزانها، ربما، أو قد يكون ناشر ديوانها الذي ربما استهواه حزنها؟

## 5

لم أنتبه لحجم الديوان إلا عندما ألقيت به جانبا بعد أن رأيت أن قصائده في أكثرها تبالغ في الأسى ونفسي لا ترتاح للانهيار. كان حجم الديوان صغيرا يتسع في كف اليد المبسوطة. الحجم، حجم الديوان، لم يكن مغريا ولا هي أرادت له ذلك أو ناشره بالأحرى، واللون الذي كساه كان باهتا ويجوز أن أقول: غائما كسماء احتجبت

في يوم خريفي يبعث على الشجن. الحجم الذي يبدو كما لو كان أضمومة من العواطف الجياشة التي ربما كانت تنقلي في سعارها على المعاناة التي يكابدها كريم السعداني، أو تكابدها هي إلى جانبه حيث كان في تلك الأثناء يرقد في المستشفى... ربما قبل أن يعرف أو يخبره الأطباء بذلك، وقبل أن تعرف حنان أو يخبرها أطباؤه بذلك، كما سنعرف نحن زمرة من الأصدقاء والأقرباء معهما فيما بعد، أن كريم سيفارقنا لا محالة إلى الأبد.

## 6

حنان ...حنان الداودي لم يكن في ديوانها الأول الذي نشرته قبل هذا ما يملأ صدر قارئ بالحزن، ولذلك أسمته بالفرنسية: «البدايات». البدايات لا بالمعنى الذي قد يفيد أنها طارئة على الشعر، بل البدايات التي تعني، ربما، أن وراء شعرها زمنا عريضا، ووراء حياتها تجارب حية، ووراء هذا وذاك امرأة تساكن المخاضات، تتقلب على نيران الاعتصارات والشدائد، وأنها ما انفكت تقول وتقول الأشياء النابعة من أعماقها لأنها هي الأشياء التي تنفذ إلى الأعماق.

بالتأكيد لم يكن كريم السعداني في تلك الأثناء قد مرض، ولذلك يمكن أن نعتبر ديوانها الأول هذا إيذانا بمجيء امرأة هادئة إلى العالم، عالم المعاناة كما ستقول، هي نفسها، عن تجربتها الجديدة في الحياة عندما سئلت، بهذا الخصوص، في لقاء أدبي عن الأدب والمرأة ذات مرة.

## 7

عندما رجتني حنان الداودي بإلحاح أن أرسل لها عنواني الشخصي حتى تبعث إلي بديوانها الثاني قالت لي بالحرف: «**لكي تعلم أنني ما زلت قادرة على العطاء، ولكن قلبي محطم يفجعه الألم**». لو لم أر في ذلك طريقتها في التعبير عن الكبرياء الذي يراودها كلما استنجدت بالمداراة لقلت لها: لا عليك، سوف تشعرين بالحياة كلما دنوتِ من المستحيل. أأنا المستحيل المستعار إذن ؟ ربما قلت لها ذلك أيضا في الجواب الذي كتبته لها مؤملا أن تفهم إشارة مبطنة حافلة باللغز، لم أكن أقصد المبالغة، بل واعيا أقصد الاستدراج، لقد كنت في تلك الأيام أتيحن الفرص لكي أجلس إليها بشعور غامض. هل كانت تريدني أن أقترب منها ؟.

# 8

في خريف تلك السنة من عام 2002 لم تكن حنان الداودي تعني لي شيئا، لأنني، بكل بساطة، لم أكن قد تعرفت عليها بعد، ولا كان اسمها في الدوائر التي أتصل بها وتتصل بي على أي نحو من الأنحاء، بل ولم يسبق لمريم البدري نفسها، حتى حين كانت علاقتنا مشتعلة في تلك الفترة المضطربة من حياتي، أعني قبل أن تطردني من جنتها، أن أتت على ذكرها. سأعرف، فيما بعد بطريقة غير مباشرة، أنها صديقتها الأبدية التي لم يسبق لصداقة أن كانت في مداها من العمق والتلازم الشديدين. ثم عرفت، خصوصا بعد أن لم أعد أذكر هل انفصلتْ عني مريم أم أنني أنا الذي انفصلت عنها، أن علاقتهما تباعدت بعض الشيء وبالضبط عندما التحقت حنان الداودي بباريز، فانخَرَطت في طريق القوم ووضعت السبنية على رأس تترنح في الأفكار الدينية بلؤم، فيما كانت مريم نفسها قد شرعت مباشرة، بعد التخرج، تبحث عن العمل المستحيل في أي مجال، كما كانت تقول، يناسب كفاءتها وقدرتها على العطاء.

النقطة الغامضة أنني لا أعرف عنها شيئا في المرحلة المضطربة التي استوت فيها حنان على اعتقادات

لازمتها أزمانا. إذ غزاها التصوف ربما بطريقة صبيانية لأنها، على الأرجح، لم تكن في نضج يسمح لها بالخلوة وإخلاص الصادقين ولا النية ولا الذكر ولا الزهد، إلا النفس التي كانت بالنسبة إليها مركز الطاعات فيما هو المظنون. ثم فيما حكت مريم البدري، بعد واقعة الانتحار، أنها تزوجت من مسلم بُوسْني ورزقت منه ولدا مات طريا، ثم وثم وثم... أقصد حكايات كانت أسرارا، حكايات كانت أوجاعا، حكايات تَخَثَّر دمها على جراح لم تندمل أبدا. ما كان لي أن أفهم هذا، لأن الأسرار ليست من بنات المراسلات الإلكترونية ولا العلاقات الافتراضية. وفرضا لو عرفتُه، ما حكمه ؟ إنه الماضي الذي لا يفارقنا ولكنه لا يلزمنا بالاعتراف. انتهى الكلام إذن.

ثم إنني لم أكن بطبيعة الحال أعرف أن حنان الداودي على ذلك الارتباط الجنوني المخبول، المتوتر، الصاعق كذلك، الارتباط الذي رأيت فيه الاستسلام وشيئا من العبودية... من طرفها بالطبع وليس من طرف كريم السعداني بالتأكيد، الارتباط (الارتباك في الواقع) الذي يبدو في الظاهر أنْ لا فكاك منه إلا بالموت. فهل كان في ارتباطها بكريم هذا المعنى ؟ لم أكن قد أدركت في تلك الأيام، مقدار الحب الذي تكنه لهذا الكريم الذي ملك عليها قلبها

ولم يترك فيه أي شبر لهاتف أو خيال. قيل لي كانت مجنونة، مريم هي التي كانت تجعل من تجربتها في الحب علامة على استسلام، ولما كان هو، كريم، في قوته لم يكن يتردد في هزمها، بل كان، كما كانت تقول مريم على لسان حنان الداودي، يبالغ في تحطيمها برِفق هههههه لكي يتخلص منها. تحبه إلى درجة العبادة، ولكنه، فيما كانوا يقولون أيضا، لم يكن يترك مناسبة إلا ويفهمها أنها لا تستحق شيئا منه. جاءت المناسبات فيما بعد، خصوصا بعد أن تواصلت المراسلات بيننا فصارت مع الوقت تناديني صديقي العزيز سعد، فعرفت منها مباشرة ما لم تكن تتحرج في ذكره رغم ألمه وجرحه. كريم، رغم أنها تحبه، يكرهها أو شيئا من هذا القبيل. حنان الداودي تعبد كريم وهوالكاره لملتها المُكثِر في القسوة عليها.

## 9

وفي جميع الأحوال فبين تاريخ تعرفي على حنان الداودي وبين معرفتي بجميع الحقائق، أعني بجميع المعطيات المتعلقة بها، فترة تزيد عن السنتين كنت خلالهما قد انتقلت إلى الاستقرار في مدريد، ولم يعد

يربطني بالبلد الذي كثيرا ما شعرت بالنقمة الشديدة عليه أي شيء... وسوف لن أتكلم في هذا الموضوع رغم إلحاحه الشديد عليّ لأنه مؤلم يهددني بالأوجاع. أنا هكذا بعد أن تغيرتُ.

لم تتردد مريم كثيرا في الرد على طلبي رغم مرور بعض الوقت، وأذكر أنها كانت صريحة معي في موضوع محدد لم يكن من المحتمل أن نتكلم فيه مقدما ولا مؤخرا، لم تعجبني فيه صراحتها، بل وأحسست بالخجل عندما ذكّرتني عن قصد بشيء كنت غارقا فيه وأرفض الاعتراف بغرقي عندما يتحول إلى اتهام ضدي، بل وأذكر أنها لمحت أيضا إلى ما كنت أجهد كثيرا في إخفائه اعتقادا مني بأن الآخرين غير قادرين على إدراكه، بل وعجبت لشيء معين كنت أحسب مع نفسي أنني تخليت عنه أو لعله من الصعب أن يكون طبعا في جبلتي. الظاهر أن مريم كانت تعرف كل شيء، أو شيئا كثيرا عني. ربما أريد الإشارة بهذا كله إلى علاقاتي المفترضة مع النساء... كما كانت تلمح إلى ذلك مريم البدري باستمرار. أنا في رأيها، وهو السبب الذي جعلها تنفر مني نَفْرَا كما باقي النساء، زهواني صاحب نساء أتصيدهن للغايات. لم تكن مريم على صواب بالطبع. بعض الرجال ينفرون من النساء الزهوانيات كذلك. أنا لا.

أذكر أن مريم لم تتردد طويلا في الكتابة فأشارت علي باسم المترجمة حنان الداودي التي تعرفُ، كما كتبت في رسالتها، أسرار اللغات، وأنها قادرة، كما أضافت، في نفس الرسالة، على صوغ المعاني والوصول بها إلى الأفهام بيسر، وأنها صديقتها الحميمة التي لا تهنأ روحها إلا على صدرها... وهكذا كانت العلاقة منذ فترة بعيدة، ربما منذ الصغر، كما أضافت مريم مستذكرة بابتهاج، في حي من تلك الأحياء التي نبتت، على نحو ما، في أطراف الدار البيضاء بعد الأحداث الدامية في وائل الثمانينات، ربما.

هكذا اكتشفتُ حنان الداودي من خلال رسالة.

لا أعرف تماما كيف أصبحت رسالة مريم بداية ما، بداية علاقة غامضة بالقطع، أو علاقة غامضة فيها وَهْمٌ، وأعني بذلك علاقتي الغامضة الواهمة مع حنان. هل حقا قامت بيني وبين حنان الداودي علاقة ما في يوم من الأيام حتى تكون غامضة واهمة؟ سوف لن أجيب بلا، ولا يهم أن أجيب بنعم، لأنني عشت تجربة ما زالت لحد الآن تستدرجني إلى البوح، من شدة ما كان فيها من ارتباك وتوتر ومعاناة جاءت في أعقاب شيء من الانجذاب. انجذبت نحوها في نشوة رغبة راغية ...ربما خيل إلي وأنا بعيد عنها أشتهيها في تلكً الأيام أنها ستكون أعنف لذة ممكنة. الأوهام بالطبع.

سيصبح كريم السعداني الذي هو رفيق دربي غريما، وسأتحول أنا إلى مخادع، أما حنان الداودي فكانت في الواقع تنتظر نهايته لكي تقول لي على أكثر أنواع القسوة إيلاما بعد أن أغرتني بالوعد سنة: «**سعد، لا تحاول من فضلك، لا تحاول أبدا، غيابه يؤرقني مثلما كان حضوره، لا أستطيع أن أكون معك، ولا أن أهبك شيئا مني**». (لعلها كانت تلمح إلى استحالة قيام أية علاقة بيننا، مع أنه لم يسبق لي أن فاتحتها صراحة أو تلميحا في ذلك بالمرة). أدركتُ في النهاية أنها لبست جلد الرجل الذي ساح «**على عظام منحوتة من هزال**» وأن علي... أن أصمت، هكذا بكل بساطة.

## 10

لا تبالغ حنان عندما تقول في الديوان الثاني مخاطبة كريم بعد موته الأليم: «**هل تحس بارتعاش السماء عندما يتعرى جسدي؟**» لأنها كانت قد وهبت حياتها كلها لرجل رحل عنا الآن. وربما يجب أن أقول احتراما لجميع الذكريات، إنها وهبت حياتها في الأخير تماما لرجل لم يعبأ بها كثيرا، كما كانت تقول لصاحبتها مريم، وقد رحل عنا الآن. أيجب أن نقول كل شيء في غيابه الأبدي؟ وقد يجوز أن أقول أيضا إنها

استقرت عليه، وهو الذي كان خارجا يومها من محنته الشخصية غداة تجربة طويلة من الألم، بعد أن أعيتها التجارب الفاشلة، تجارب الرجال الذين أطعموها جميع الإهانات الممكنة، مع أنها أنجبتْ منه اثنين على الأقل دونيا وربيع، فالتصقت به لا تفارقه تقريبا دون أن يبوح هو لأي كان بهذا الالتصاق الغريب، أما هي فكانت تصدع به، ولو في محيط خاص، لكل من يسألها: يا حنان، ما أخبار قلبك الصادي؟ تقول: أنا أموت من عشق الرجل.

كريم السعداني لا يقول أي شيء بالصراحة المعهودة، أو على الأقل كان يُفْهِمُها أن حياته العمومية لا تتسع لها، فليس عليها أن تعرف أصدقاءه ولا عائلته، وليس للآخرين أن يدركوا أن بينهما أية مودة أو رحمة. كريم رجل عمومي غامض ربما، وهي التي، حنان الداودي، اللصيقة، كانت تقول لمريم إنها لا تستطيع أن تعلن حبها له على مسمع من العموم، بل ولها كذلك. كريم يصطحبها معه، يمشيان الآن بعد أن نزلا من السيارة التي قادها هو في الطريق المعبد إلى الحفل، ولكنه سيُلزِمها، بعد حين، عندما يشارفان على المكان، تماماً على بعد خطوات فقط، بالبقاء في الخارج. يدخل هو، ثم بعد برهة تترجل هي في هدوء كأنها أخر من يصل إلى

جميع الحفلات التي كان عليها أن تكون فيها معه. من بعيد تراقبه، وحتى لا يفهم الآخرون أنه من لحم ودم كانت تتبعه. مَنْ يعرف منكم أيها الحضور تلك العلاقة القائمة بين كريم السعداني وحنان الداودي؟ بين الرجل العمومي الغامض والمرأة المُجرجرة اللصيقة؟ مريم تبارك لها الحب الجديد، ولكنها كثيرا ما تعنفها باسم الصداقة الدائمة على هذا الاستسلام المفجع لرجل يدحرجها كيفما يشاء، أو كيفما تشاء له حساباته الخاصة وانشغالاته العمومية. ربما كانت مريم بالنسبة إليها مستودع الأسرار، وإلا كيف يمكن لمخلوق يتجرجر هكذا أن يعاند بكبرياء إلى ما لا نهاية في مكابدة المهانات؟ وأظنها كانت كذلك كما تأكد لي فيما بعد، بل ويمكن أن نجد في الديوان الثاني الذي هو عن هذه التجربة المدمرة في الحب ما يفيد ذلك عندما تقول : «**كرياتي الدموية مكونة من اسمك وبدونها جسمي يتحلل**».

## 11

لم تكن مريم البدري عادلة عندما قالت لي صراحة في رسالة ما مفاده: سعد، أنا أعرفك تماما، فلا تحاول مع صديقتي المترجمة. بل وكررت على

مسمعي: سعد، حنان الداودي مترجمة فقط، وهي تمر بتجربة خاصة، مؤلمة، دعها، إذن، تقوم بعملها على الوجه المطلوب. حسبتها تقول لي بإلحاح على غير ما توقعتْ هي: يا سعد، العنوان الذي بين يديك لامرأة ...فراودها عن نفسها، وإلا فما المبرر الذي دفع مريم لكي تطلعني وتحذرني، في نفس الوقت، من شيء لم يكن من الوارد في بداية الأمر أن أنشغل به أو أهتم بأحواله؟ كنت أعرف، بحكم بعض التجارب الخاصة، تجاربي الفاشلة، أن المرأة، أقصد مريم بالخصوص، لا يمكن أن توصيك خيرا أو شرا في شؤون القلب بامرأة أخرى، وإذا ما فعلت قصدا فاعلم أنها تُضْمر عكس ما تعلنه. لعلها تقول لك قصدا:هيا استجب لحدسك المباغت فهو دليلك إلى المفاجآت. ولو كان الأمر يتعلق بفريسة لقالت لك: افترس!!

## 12

المشكلة، كما تأكدت في الحال، أن مريم البدري أرسلت مع جوابها عن رسالتي صورة ملونة ما أن أعْمَلتُ نظرات متملية في قسماتها المثيرة نوعا ما حتى تبين لي أن حنان الداودي تطل علي من مَهْجَرٍ شديد القرب، وأن الابتسامة الفاترة التي كانت علىً

وجهها دعوة مبطنة لراغب في الاقتراب. الوجه الذي تخال أنك لمحت شبيها لعينيه أو لغمازتيه في مجلة من تلك المجلات العربية الملونة المتآكلة التي توضع في قاعات الاستقبال لدى أطباء الأسنان أو القلوب، لا فرق. والمشكلة الأخرى، في تلك الأثناء، أن حنان الداودي نفسها لم تكن تعرف بالطبع أن بين يديّ صورتها، وأن تلك الصورة التي بدأت تثير شيئا من الرغبات الدفينة قد لا تعكس، شكلا على الأقل، نفس الشخصية التي تستحث هذا القدر من الاستيهامات في ناظرٍ مثلي. وهل تكون هي بالذات التي تقول لكريم فيّ الديوان الثاني: «**ابتسامتك تهرب من أغلالهم لتضيء جسدي**»؟).

## 13

العلاقة الآن بهذه الحنان علاقة مرتبكة، فقد اندست فيها مريم حتى قبل أن تقوم لها قائمة في القلب أو في الكيان. لم أكن قد رأيت حنان الداودي إلا من خلال تلك الصورة الملونة التي وصلتني من مريم البدري وهي تدرك بالتأكيد أنني يمكن أن أفكر فيما حذرتني منه، بل وهي تفكر أيضا أنني سوف أرتمي على الفرصة المتاحة غير أبه بالمحاذير التي أعلنتها في

وجهي. أما اسم حنان الداودي فلم يكن قد استقر على شفتي بعد، وحسبت من الوهلة الأولى، كما قرأت في رسالة مريم، أنه مألوف لا وقع له في نفسي. فكيف أجعل منه هدفي؟ لا يمكن.

## 14

فبراير 2007

ربما كانت رسالتي الأولى إلى حنان الداودي أكثر من مفاجئة لها بالتأكيد ولي أيضا حين أعدت قراءتها في فترة لاحقة، لا بل ربما عادية تماما كما قلت في بعض اللحظات أيضا، بل ويُكْتَب ما يماثلها عادة في جميع المناسبات التي نرغب فيها، حالمين أو طامعين، أن نتودد إلى الآخرين وقد خالطتنا جميع الشكوك وحيرتنا جميع التناقضات عساهم، حسب الظروف والأحوال، يفعلون شيئا من أجلنا. أن يفعلوا شيئا نرى أنفسنا أولى به من غيرنا، وهم أولى بالطلب من سواهم في تقديرنا الخاص. غير أن رسالتي، فيما أذكر وحتى حين لا أذكر شيئا، كانت تخفي، كعادتي كلما خاطبت النساء أساسا، شيئا من الطمع، الطمع الدفين الذي لا أعرف كيف استولى على عواطفي واستقر في نفسي، الطمع الذي يمكن أن ينتهي بالمفاجأة،

المفاجأة السارة التي يكاد المرء أن يقول عنها من يقين: لي وحدي وأنا الموعود بها دون سواي. لا أملك جوابا عن طبيعة المفاجأة المحتلمة، ولكنها تلك التي لا يتوقعها إلا من سهى عنها، حقا.

## 15

قلتُ لها: «**أريد في البداية أن أقدم لك نفسي لكي تسهل مهمتي**» (اللعين أنا: لماذا أريد فعل ذلك، وكان من الممكن أن أشرح لها مباشرة ما كنت أريده منها؟ ما المهمة أيها اللعين؟)، ثم ذكرت لها أن صديقتي الحميمة مريم (ولم أزد على ذلك شيئا إلا أن قلت لها إنها تحبك أيضا) هي التي أرشدتني إليك وأعطتني عنوانك. في الرسالة قمت بمناورة غامضة لم تكن قد اتضحت لي بعد، إذ كتبت بين قوسين أقول لها: «**لقد صرت أخاطبك مباشرة بدون ألقاب، كيف أتجرأ وأسمح لنفسي بذلك؟**». أحسب أن التعبير كان بالفرنسية فكان كباقي المظنونات بليغا، يعني أيضا أنني نجحت في رفع الكلفة التي غالبا ما تلجم العواطف النابحة. كنت في الحقيقة أريد معرفة رد فعلها منذ البداية رافعا بذلك، من جهتي على الأقل، جميع الحواجز التي تقف عادة أمام أشكال

الخطابات التي نصطنعها للتحاور مع الآخرين. أما عندما ذكرت لها موضوع رسالتي فقد كنت، في الواقع، أتفنن في حَبْك جميع الحيل التي اصطنعتها لإقناعها بأنني منفتح، ومتحاور لبق، وأستطيع أن أتواصل معها بكل يسر، بل ومهما بعدت المسافة، وكذا وكذا...إلخ .الأشياء المعروفة في التقرب والمغازلات التقليدية المبطنة.!

## 16

أقول في الرسالة بالفرنسية مترجمة إلى العربية :

«**أريد في البداية أن أقدم لك نفسي حتى تسهل مهمتي، ذلك أن صديقتي العزيزة مريم هي التي أمدتني** (ها أنا أخاطبك مباشرة بدون تكلف) **ببريدك الإلكتروني. وأود أن أخبرك أن مريم أيضا** (التي تعزك أيما اعتزاز) **هي التي اقترحتك بعد أن استشرتها في الأمر للقيام بترجمة كتاب ترغب «دار الحياة» نشره بدعم من مصلحة الكتاب الفرنسية. ولهذا الأمر أريد أن أعرف رأيك في الموضوع قبل ربط الاتصال بينك وبين الدار لمزيد من التفاصيل الخاصة بالموضوع، شاكرا لك كل تعاون، والسلام**».

## 17

رسالة حيادية لمن لا يعرف القدر الباطني من التوقعات التي صاحبت الكتابة ورافقت الاهتمام بالموضوع إلى أن توصلتُ بالرد. رسالة تتكلم عن الأمر الاعتيادي الذي لا يثير أي شك. لا شيء، خطاب فيه علاقات مفترضة، اقتراح، بيان أسباب، الإيحاء بوعد، ثم لا شيء...إلا لمن يبني، في غياب جميع الأسباب الداعية لذلك، قلعة من الأحلام في خلوته ووحدته ظنا منه أنه على أتم استعداد لخوض جميع المغامرات التي تظهر له دانية في المتناول. حنان في فرنسا، حنان الداودي مترجمة، حنان الداودي صديقة مريم، الترجمة من العربية إلى الفرنسية، من تكون المترجمة التي لم يكن قد بلغ إلى علمه وجودها، أين هو من كل شيء، لماذا لا تكون هذه المناسبة مثل غيرها... تلك المناسبات التي يتصيدها ويتمناها للخروج من أزماته المتتالية ؟.

## 18

في تلك الأيام كانت حياتي قد آلفت، إلى حد ما، التجربة الجديدة التي أقدمت عليها بدون تدبر.

كنت أريد الخروج من تلك الضفة بعد إنهاك عايشته متوقدا على نار جميع الأعصاب التي تثور لأيما سبب قد يكون. الأسباب كثيرة ومدمرة. الأسباب عميقة حتى. الأسباب التي ما كان لها إلا أن تطرده من جميع الدوائر التي ألفها وألفته. هذا كله لكي قول بوضوح: حين خرجت لم أعد أجد في نفسي أية قدرة على العودة، أية قدرة على التذكر الذي كان يقول لي في أبلغ لحظات السهو: لقد غادرتَ فعش في غدرك. لا أعني المغادرة بل الغدر.

## 19

أن يعيش بإحساس جديد في فضاء مغاير ليست له قواعد ثابتة كتلك التي كثيرا ما كان يود لو تفل عليها من كثرة الإحباط. من شدة اليأس، من التجارب التي كثيرا ما كانت تينع في وجهه لكي تموت في عينيه بعد حين. كان يرى أن الآخرين، إلا أصدقاءه بطبيعة الحال، مدمرون لا يعرفون لرهافة الذوات إحساسا. أما هنا فالناس لهم سحنات مختلفة، لا يرون منك إلا ما تود في غالب الأحيان أن ينكشف لهم منك. .لم تكن الشوارع فسيحة فقط كما يلحظ الزائر لمختلف العواصم الأوربية، بل الشوارع محترمة على نحو

https://facebook.com/groups/abuab/

ما: الإنارة في الليل بديعة، السير في جميع الأوقات مدروسا ومنظما، وحين يتدافع الناس لا يتلامسون وهو أمر غريب بطبيعة الحال لم ير له مثيلا من قبل بسبب الاندحارات القوية التي لابست أيامه وتوالت على أوقاته بدون حساب فأعمته عن رؤية الحقائق والخلائق.

## 20

لماذا يا ترى كنت أريد الالتقاء بحنان الداودي مع أن مريم، كما قلت، بالغت في التحذير، أعني وهي تحذرني كأنني الوغد الذي لا يؤمن جانبه: «**لا يا سعد، لا أريد لك يا سعد، أو لا أريد لحنان الداودي أعز صديقاتي أن تغرق في تجربة جديدة قد تكون أفشل من الأولى، لا لا أبدا**». كظمت غضبي، لا تريدين لحنان الداودي... ؟ طيب، أما وأنك قد لا تريدين لي فهذا شيء يخصني، أليس كذلك؟ أدركت أن مريم حتى عندما أرسلت لي صورة حنان لم تكن، في الواقع، تريد لي أن أتمعن في قسمات وجهها، أو أن يشعر قلبي بأي نوع من الانجذاب إليها. ذكرت لنفسي في سورة الغضب أن مريم ما كان لها أن تكون وصية على أحد، وأن تجربتي معها لا يجب أن تصبح، لها

ولا لي، مبررا فاضحا لجميع التحذيرات التي يجب أن نلقي بها هكذا في الهواء، لمجرد أنها طافت برؤوسنا في لحظة تفكير في ذلك الآخر الذي نخاف عليه أو منه. لماذا هكذا هي مريم منذ أن تزوجت وأنجبت لا تقول إلا ما تخاف به على الآخرين. هل الآخرون حيارى لا يعرفون المصالح التي تهمهم أو لا تهمهم ؟ أمر غريب.

## 21

في الرسالة الأولى التي توصلت بها من حنان أدركت أنها مرت بتجربة حزينة مدمرة، وأنني لا أملك من الأسباب ما قد يجعلني أفرض نفسي عليها. والأخطر من ذلك أنني كنت أعرف، إلى حد ما، جميع التفاصيل التي لم تكن بعد مدركة في العلاقة التي سوف تقوم، إن قامت في يوم من الأيام، بيني وبينها. كنت أعرف، مثلا، أن كريم السعداني، لأسباب لا أريد الكشف عنها، قد قتل فيها جميع الشهوات. كان رجلا كتوما وباردا وصامتا تحسبه لا روح فيه، لا يعرف إلا سواه منذ أن انطوى على نفسه فيما يبدو. جاء المرض الذي شرع يقتل فيه، كما قتل في الذين سبقوه، جميع الدواعي التي تدعو الآملين في الحياة إلى الحياة. إننا

نتوهم في لحظة مرض أننا انتهينا إلى آخر النهايات المتوقعة، وأنه لم يعد لنا من أمل في الوجود، لماذا نأخذ الحياة ونترك الموت؟ كان كريم السعداني، في تلك المرحلة على الأقل، مدمرا فانطفأ وتهاوت أحلامه، ثم شرع، عن غير علم حقيقي بالإساءات، يدمر أيضا جميع العلاقات التي بناها عبر السنوات، أو على الأقل تلك التي حافظ عليها طوال سنوات. كان محيطه القريب يقول عنه تقريبا: لقد انتهى كريم. ها أنا أدرك، بمحض الصدفة، أن حنان الداودي أيضا قد شارفت على نفس النهاية، وخصوصا عندما وجدتها تقول في الديوان الثاني: «**إنني الصراخ عندما أرى هذي الحبال التي تحمل علامتك**». علامة انتحار مبكر.

## 22

كتبتُ إلى حنان الداودي، وربما كانت تلك رسالتي الرابعة أو الخامسة، أستعجل الموعد عن قصد. قلت لها في رسالتي ليوم 29 يناير ما مفاده بالعربية: «**أنا نفسي لا أعرف على وجه** (كدت أن أكتب: على وجع) **التحديد لماذا أصبحت هكذا** (لا أفصح لها عن أي شيء)، **بل كثيرا على ذلك النحو من الاشتياق. لا أريد أن أفسر أي شيء ولا أملك من العناصر**

**ما يمكنني من ذلك، وهل لأحوال القلب تفسير...لا أظن**». ثم قلت، كأنني أستعجل إنهاء الرسالة، إننا سنلتقي في تطوان ربما، وأن الظروف المناخية غير مناسبة، غير أنه إذا ما طرأ طارئ «**فسوف أخبرك بذلك في الوقت المناسب**».

أذكر أن حنان أجابتني بالفرنسية في اليوم الموالي قائلة: «**لنبق يا عزيزي على ذلك الشعور الجميل الذي أفصحت عنه في رسالتك بأنني سألقاك في القريب**». تساءلت مع نفسي: ما الشعور هذا الذي دونته لها في الرسالة الإلكترونية وأنا لاه عنه؟ كيف أدركتْ هي أن لي شعورا تعرف أسراره أكثر مما أعرف أنا؟ كنت في بداية ما لا تقول أي شيء. ربما كنت أمام كلمات لها وقعٌ البداية الممكنة. هل كنت فعلا أريد اللقاء بحنان الداودي؟.

لا أذكر كيف قامت جميع المراسالات بيننا ولا كيف استمرت وتواصلت في الزمن. هي من باريز وأنا من مدريد، هي من الغربة التي كانت تقول لي إنها موحشة ولكنها لذيذة، وأنا من المتاهات التي كنت أجتازها في تلك الأيام من بداية البرد القارس الذي زحف في أوقات الجفاف الكالحة... منذ السنة الماضية ربما عندما ترددت السحب طويلا في الالتفاف على هذه الناحية.

## 23

الآن، إذن، مريم البدري هي التي أرشدتني، بكل اهتمام وتقدير، وأعرف أنها ارشدتني إلى نبع. أنا أحمل لتلك المرأة اللزجة، بعد تجربتنا التي واراها زمن التحولات، أكثر من الود الذي تقاسمناه أزمانا، هي في الحب الشديد الذي طوقني بالرحمة، وأنا بنوع من الفتور، لكنه الفتور المحبب الذي كان يتركني خلف الباب الموارب، لا أريد الدخول، بل ويجعلني الدخول في موقف أسر قاتل أو فتاك، ولكنني أريد أن أعرف، معرفة حاسمةً، وأن أسمع كل شيء يجري في الداخل كما لو كان في دواخلي. أظن أنني أحببت مريم البدري ثم خذلتها في لحظة زيْغ... حين شعرتُ، بنوع من التوجس العاطفي، أنها تريد الاستبداد بطبعي وخاطري.

أذكر، إذن، أن مريم البدري هي التي أشارت علي بها، على حنان الداودي تلك، وجاء الوقت الذي حذرتني فيه لأنها، على الأرجح، كانت تعرف لذاتي وجنوحي ولهفتي والمؤامرات التي أحيكها للظفر بما ومن أشتهيه، فورا حين تكون الشهوة فورة مرتبكة نافرة راعدة. عادة ما أقول: أأنا هكذا متآمر ميال إلى اللذائذ والشهوات التي لا أغنم منها إلا الهباء؟ ربما،

بل أنا كذلك حين أريد أن أعترف بالحقائق التي تخيفني في وحدتي.
أنا هكذا في علاقتي الرخوة بجميع النساء.

## 24

أقرأ في كتاب ميلان كونديرا (الستار الحديدي): كان أصدقائي يقولون إنه لا توجد تجربة أمتع من أن يكون للإنسان في يوم واحد ثلاث نساء على التوالي، لا لحاجة جنسية بل كمغامرة فردية تستفيد من سلسلة غير متوقعة من المفاجآت والإغراءات اللماحة. إن (يوم ثلاث نساء) هذا، وهو أمر نادر جدا ويداعب الحلم، له بهاء رائع جدا لأنه ليس مرتبطا بالقدرة الجنسية الرياضية، بل بالجمال الملحمي لتتابع سريع من اللقاءات التي تظهر فيها كل امرأة، على ضوء من سبقتها، فريدة لا يماثلها شيء، كما تبدو أجسادهن الثلاثة كثلاث نوطات موسيقية طويلة تعزف كل واحدة منها على آلة مختلفة ولكنها تتوحد في نغم واحد. إنه جمال فريد من نوعه، جمال كثافة حياة مفاجئة.

## 25

كنت أعرف من خلالها هي بالضبط، حنان، وخصوصا في الأويقات التي كانت تحدثني عن بعض العذابات الخاصة، أن كريم السعداني قد يصل إلى باريز بين الفينة والأخرى. لقد وصل إذن، لا لم يصل بعد، هل تقدم موعده أم تأخر؟ ها هو قادم بعد حين من المفازات المظلمة بسبب المرض الذي كاد أن يقعده، ولكنه حتى حين تآلف تقريبا معه لم يفارق جسده العنيد منذ أن ابتلى به، يأكل منه ويحاول هو أن يرد شراهته المفترسة التي تقتل الأمل في الحياة. كنتُ أعرف مسبقا أن كريم سوف يدخل إلى المستشفى، لعله يحتاج إلى فحص، حالته الآن مستقرة، القيء الذي يلازم الدوخة، الغثيان الذي يذكره برائحة الموت، الدبيب الذي يفترس مسامه. أسأل حنان الداودي: أين كريم؟ تقول لي إنه هنا، سأحمل له بعض الخضر كما تقول لي وادعة في الهاتف الذي يصلني بها. كريم لم يعد يفكر إلا من خلال اليأس، لا يستطيب للأكل مذاقا. لا يقول أي شيء. إنه في حال من التلاشي البين، الوهم بأنه يحيا في آخر اللحظات الممكنة الراحلة المنقضية الذاهبة. حنان الداودي كانت تقول ذلك. تكرره. لا تمل من تكراره.

## 26

بعد يومين أو ثلاثة لم يعد لحنان الداودي أي حضور يذكر في مجاله، بل مجالي أنا. سها عنه، بل عني، ذلك الصوت ذو اللكنة البدوية الطروب الذي استذوق غنته واستطاب بيانه والانهمارات التي تتوالى فيه إثر كل تدفق يصوغ الاختلاجات. حنان الداودي لم تعد تحدث ذلك الصدى الذي يخلف وراءه فراغا في النفس، لعلها صمتت هكذا فاحتبس الكلام في الصدر، صدرها أعني حين لا يكلمني بالبراءة المعهودة

.

## 27

ركبت رقم هاتفها بتردد. لم أعد أذكر متى. هل كان الصباح حين كنت أريد سماع صوتها، أم تركني المساء على تلك الجفوة اليانعة في الصدر؟ سمعت أو خيل لي أنني أسمع رنات تحدث بعض صوت أو صدى... أو لا تحدث أي شيء. فراغ في المكان أحس برودته وصمته. إن المكان، فيما يبدو، خال منها وهي ليست فيه بالتأكيد. أصبحت أدرك أنني مأخوذ بها، على الأقل، وربما بحكم الاعتياد، مأخوذ

بصوتها وبالجواب الهادئ الذي تذيعه في صمتي. اليوم لا جواب، لا أحد هناك ليجيب صمتي أو ندائي أو بعض رغباتي.

بعد حين أعدت تركيب الرقم إياه الذي كان يصلني بها. فجأة، بعد الرنة الثالثة فيما تصورت، يصعد صوتها الهادئ من قعر أيامي ليرد لي ندائي:

**– غير معقول ! أين أنت ؟**

ثم بهدوء مشوب بالتردد، ولعل في الصوت كان الخجل، تجيبني:

**– مع كريم!، إنه في وضعية صعبة، ولو أن حاله مستقر، لكنه لا يتجاوب مع أي شيء،**

أقول لها:

**– وما رأي الطبيب المعالج؟**

**– لا شيء، لا أدري.**

خيل إلي أنني استوعبتُ الموقف، وبعد صمت يخاله المتكلم في الهاتف أبعد من مسافة ضوئية أردفتْ قائلة :

**– لم أخبره بمجيئك إلى هنا، أتدري؟!**

ماذا تقول هذه؟ لم أجب، بقيت صامتا أنتظر انجلاء الموقف عن حقيقة ما كنت أسمعه. هذا موضوع طارئ لا أعرف كيف أخرج إليه، ثم فاجأتني:

**– الموقف معقد يا سعد، وهو صعب، لست أدري، هل هو قلق أم غيرة أم ارتباك ؟ سعد أعرف جيدا لحد الآن أنه لا يوجد بيني وبينك أي شيء، فلماذا يصبح كريم هكذا ؟ لست أدري !**

صدرت عني بعض آهات كما شعرت. لعلي تصنعتها أو هكذا انسرحت. سمعت صدى لأنفاسي الغائرة في أحشاء الهاتف النقال. أدركت أنني أتنفس بصعوبة. قد يكون ذلك بسبب الموقف الذي وجدت نفسي فيه. لماذا أكون السبب في علاقة تزحف نحو النهاية بتثاقل، ذلك السبب المدمر أعني الذي يكون خاتمة لكل شيء؟ كيف لا يعرف كريم أنني لم أر لحد الآن حنانه الداودي تلك التي يغار عليها مني ؟ إنني لم أألَف منها لحد الآن إلا الصوت الذي يأتيني فواحا داخليا فيحدث في نفسي بعض أثر لا أستطيع تركيبه على حقيقة، لماذا ؟

## 28

كانت البداية هكذا: أبحث عن مترجم بتوكيل من ناشر لترجمة كتاب إلى الفرنسية. أكتب إلى مريم: أريدك أن تدليني على مترجم مقتدر. حنان الداودي وليس غيرها كما اقترحت مريم، صديقتي ورفيقة

أيامي من باريز، مفيدة جدا يا سعد، تقول وتكرر. مريم تقول لي: هذا هو هاتفها، هاك بريدها الإلكتروني، اكتب إليها واقترح عليها ذلك، أنا بدوري سوف أكتب إليها لكي تقبل في الحال. مريم، المرأة التي كانت لي وكنت لها في أيام ماضية عشناها على كثير من الود، تحذرني، ويا للعجب قبل البداية، من ربط أية علاقة مع صديقتها حنان الداودي، هل نسيتْ أنها بعثت إليَّ بصورتها مع أنني لم أطلب منها ذلك؟ ما هذا؟.

لم تقم العلاقة ولم تستقر بعد على أي وجود. الآن نحن في الرسائل الأولية التي أجد فيها كثيرا من الدعوات الحارة التي لها في معظم الأحيان طعم الإغراء. قالت لي في رسالة: لماذا لا تزور باريز؟ أزور باريز؟ ما المناسبة ولماذا ؟ هل أفهم شيئا محددا أم أنني أستعجل كالعادة جميع الأيام والمواعيد ؟.

لماذا تشير من قريب إلى كريم السعداني؟ ولماذا تتصور، بطريقتها الخاصة، أنه قد يغار مني. تقول في الرسالة : (**لم أخبره بمجيئك إلى هنا، أتدري؟**). ! هل تعرف حنان أنْ لا شيء يسمح لها بالتوقع حتى تدرك أنني ممسوس بهواها، فتتكلم باسمه عن جميع التحذيرات كما تكلمت مريم باسمها عن جميع التحذيرات التي قالتها لي ؟

الشيء المثير الذي يستفزني هو أن حنان الداودي على علاقة بكريم السعداني. هذا أمر كنت لا أود معرفته بالمطلق، على أي نحو. كريم السعداني الذي ما أن أخبرتني حنان الداودي بتلك العلاقة المكثفة التي فيها المرض والذكريات والحب، بل العبادة، حتى جف حلقي. لماذا أقتربُ من النار وأنا أعرف جنون لهيبها الحارق؟ لماذا أقع هكذا في هذا الشِّباك؟

## 29

لم تكن رسالتها الجوابية الأولى حيادية، لا. ولم تكن باردة، لا كذلك. كانت رسالتها بيانها. خاطبتني باسمي عاريا من كل لقب. قالت لي مساء الخير يا سعد، هكذا تماما كأنها ترفع التكلّف مباشرة بيننا... على نحو ما كنت قد خططت له في رسالتي إليها، الرسالة السابقة التي أقترح عليها فيها أن تقبل العمل لترجمة كتاب لفائدة الناشر الذي وكّلني على ذلك. هل تقوم بنفس الدور؟ وهل هكذا تكون المواقف بين الرجال والنساء طمعا في الاستدراج عادة؟.

أما مفاجأتي الكبرى حقا فكانت في السطر الثاني بعد التحية مباشرة عندما كتبت لي قائلة: «**إنني أعرفك**

**بعض المعرفة...**» يا للهول، كيف؟ تعرفني بعض الشيء؟ ثم زادت قائلة: «**مريم البدري تحبك كثيرا أيضا، بل ولا أخفيك أن ابن عمي سليم، سليم الداودي، يعزك كثيرا، وأنا في نفس الوقت صديقة كريم السعداني الذي يعتبرك من أعز أصدقائه القدامى، بل وهو الذي أقنعني في النهاية بقبول العرض الذي عرضته علي بترجمة الكتاب**». هذه ترجمة لأقوالها من الفرنسية، ولا أبالغ إذا قلت إنني أصبت بجميع الدهشات. أصبت، بعد شيء من صدمة المفارقة، بقوة الدهشات التي تجعل المرء في حيرة من أمره: هل يصدق أن العالم قرية كما يقولون، أم يأسف للصدف الماكرة التي ترتب المفارقات كلها دفعة واحدة لإحداث الارتباك؟ أنا أعرف سليم الداودي بالطبع، ولكن من أين لي أن أربط بينه وبينها بذلك الرباط العائلي؟ العالم مليء بالداوديين المنزرعين في مختلف خرائط البلاد والذين لا شيء يربط بينهم بتاتا، فكيف يتَّحدون في غفلة للهجوم علي؟ أما كريم السعداني فلم أَهتم كثيرا لوقع خبر معرفتها به علي. ربما قلت: الصداقة هنا تجربة كجميع التجارب التي تحتوينا أو نجد أنفسنا فيها بدون تخطيط. سياقات الحياة. مصادفاتها التي تخلق من حولنا مسارات وعلاقات وأوضاعا، أو ما شئت ففي العلاقة بين بني البشر، كما قلت معللا دهشتي، تتلاقى المصائر في

الاتجاه نحو المعرفة والحب والصداقة، أو في جميع الاتجاهات وكفى.

الباقي من رسالتها متلاحق طلبتْ فيه مني أن أبعث إليها بالكتاب «**لكي أقرأه ثم أجيبك عن طلبك بعد ذلك، فأنا أتصرف هكذا باستمرار: أتذوق أولا ثم أقرر بعد ذلك إذا ما أعجبني العمل، وفي جميع الأحوال يمكن أن نتكلم في الأمر مباشرة لو أتيحت لي الظروف أن ألقاك في وقت آخر... أنتظر أن أتوصل بالكتاب في أقرب الآجال، تاركة لك بالمناسبة عنواني البريدي ورقم هاتفي المنزلي والمحمول أيضا. حنان الداودي مع المودة**».

30

ربما كان تاريخ هذه الرسالة هو 30 أكتوبر. هذا هو تاريخها في بريدي الإلكتروني الشخصي بالضبط. ومع أن الرسائل الأولى دارت حول الترجمة لأن ذلك كان هو الموضوع من جهة، ثم إنني في الواقع كنت أريد الوفاء بالتزام قطعته على نفسي مع الناشر، إلا أن ما لم أكن أتوقعه منذ البداية هو أن تصر حنان الداودي، أو هكذا بدا لي الأمر، على أن نلتقي في المغرب في أجل... أما إلحاحها على التوصل بالكتاب فكان فيما أدركت أمرا نابعا من شوقها للمفاجأة التي قد تحدثها

القراءة .ربما كانت متحفزة بعض الشيء إذا ما فسرت هذه الحالة بمثل الحالة التي تهزني أنا عادة كلما انتابني شوق إلى المعرفة والقراءة.

## 31

الآن أفهم قولها النابع من معاناة في ديوانها الثاني: «**إن خطواتك التي تقترب مني تفتح طريقي**»، فقد كانت، فيما أظن، تعايش عن قرب تلك الوضعية المؤثرة التي استقر عليها كريم السعداني .كان قد وصل إلى باريز في تلك الأيام الباردة في حال من التدهور لم يعد يقوى معه على الحركة كما علمت .ربما انتفخت أطرافه قليلا، وكلحت بشرته، بينما كانت قسمات وجهه، تماما كما وصفته حنان الداودي في رسالة، بارزة زادها انطفاء عينيه في محجريهما شحوبا يحسبه الناظر إليه، إلى كريم السعداني، من عياء سحيق لن يبرأ منه، هكذا وصفته في رسالة.

كم أحسست أن علي أن أفعل شيئا محددا يصالحني مع نفسي قبل أن يكون مجرد عيادة له .كم ضقت درعا بذلك الإحساس الفظيع الذي كان يؤثر على سلوكي وتفكيري، نعم تفكيري بشكل خاص، عندما أدرك، لغير ما سبب ظاهر أو معروف، بأنني أترك رجلا فقد

الأمل في الحياة لمصير كنت أعتبر نفسي معنيا به على نحو من الأنحاء .وقد أقول، بصدق وصراحة، إن هذا الإحساس تضاعف على نحو عنيف الوطأة عندما تبين لي، مع الوقت، أي منذ أن عرفت أن حنان الداودي على علاقة معينة به... ثم حين كان يصلني صوت سليم الداودي من الرباط أو من باريز: كريم يريد أن يراك، كريم يسأل عنك، أنت بالذات... وهكذا حتى خيل إلي أنني منذور لقدر أعمى يدعوني بإلحاح شديد إلى المثول بين يدي ...هذا الهذيان الذي كان مظهرا من مظاهر المرض المزمن الذي استقر إلى غير رجعة في جسده الضامر، في جسد كريم السعداني الضامر حقا.

كريم السعداني لا تصلح له امرأة عل كثرة ما كان يعشق، على صفاء حشمته، من النساء .أما النساء، وربما نوعية معينة من النساء فلم أكن أعرف السبب الوجيه الذي يدفعهن إلى ذلك، كن يقبلن عليه في فرح قوي مع علمهن، وهذا هو الغريب، بأنه في يوم ما سوف يغادر إلى صقيع آخر تاركا أياهن في بحر من الظلمات العاطفية الشديدة الحلكة، في الخواء المقطر من غصة .وأفهم الآن أنه منذ أن سقط، ولم يكن سقوطه واضحا للكثيرين وللكثيرات في البداية، أصبح وديعا والنساء من حوله حليمات. هل

هناك أبلغ من قول حنان الداودي في الديوان الثاني: «**لو متُ وزرتَ قبري فسأفتح عيني لكي أراك**». غريب هذا التوله الشعري الذي يراقب النهاية على مقربة من الجسد الفاني!!

## 32

هل كان الديوان الثاني قبل وفاة كريم أم بعدها، أم أنها كتبته في فترة المعاناة؟ قد لا أستطيع معرفة ذلك، وقد لا يكون من المهم، على الأقل دائما، أن نعرف كل شيء على الوجه الذي كان عليه. غير أن قراءتي المتأنية له، في تلك الأيام الأولى التي أعقبت توصلي به مزينا بذلك الإهداء المنفصل،(**هذا ديواني يا صديقي سعد، أرجو**)... الذي حملني على تفسير الأمر على وجه معين، جعلتني أدرك، من خلال كثير من الصور الرمزية والصريحة، أنها كتبته في طور المعاناة بالذات.

ربما كان كريم السعداني، في تلك الأثناء، يحتضر فلا يبدي من هذا الاحتضار المحير، وربما الأليم، شيئا يلزم الآخرين بالتسليم. ربما كان يريد إفهامهم أنه لا يأبه لمعاناتهم الخاصة، إن كانوا يعانون حقا، لأنه مودع دنياهم على شيء كثير من الصمت. الصمت أو أي شيء آخر يشبهه، على كل

حال، يكون له ذلك البيان النهائي الحاد والفاجع الذي لا يُلْقَى عادة إلا في اللحظات الأليمة. في الملمات عندما تعوي الألآم في الذوات كالذئاب الجائعة. في الفقد المُوجع، في النهاية. بل وأكثر من ذلك كان كريم السعداني، وهو أمر محير يرويه كثير من الناس الذين عرفوه، شديد الانطواء على الألم، لا يظهر للآخرين منه إلا الهزال الذي لم يكن قادرا على إخفائه أو مداراته، لأنه صار يحفر في ذاته، بكل قوة وإصرار لا يدركهما إلا المرضى، مجرياته المنفلتة. الجسد بداية ونهاية، بداية تَخَلّق ونهاية روح... لو كان الجسد بقادر على احتواء الروح في النزع الأخير!!

«**لقد اجتزتَ حواسي وسكنتَ في عظامي**» (من الديوان الثاني) هكذا دفعة واحدة تقولها حنان الداودي كصرخة لم يكن يعرف محتواها على الأرجح إلا هو. وأظن أنها كانت تقول ذلك فوق رأسه، على مقربة منه، ربما في دواخله وفي سويداء قلبه، في لحظات تعتورها الذكريات المربكة... تلك التي تستدعي البكاء، في الخفق الدائم أيضا. لم يكن كريم السعداني قد غادرها هي دون باقي النساء بعد. هنا كانت الفاجعة اليومية، وهنا أيضا صرت أفهم لماذا توجد حنان في نفس المكان الذي كانت تقول لي منه،

ونحن في بداية التعارف، إنها لم تخبر كريم بقدومي، لماذا يغار كريم، أنا مع كريم، كنت مع كريم... إلخ. حنان الداودي كانت حقا في أتون سعير يومي يشعرها، في آن، أنها ترى رَجُلَها الأخير في صورة وداع نَبَويّ وقد استوى على الحائط في الإطار الرفيع، وأن هذه الصورة المؤطرة مهما يكن سوف تصادرها الحياة منها بعد حين. ولهذا كانت تقول في لوعة : «**إن الشمس كل يوم ترتمي كقلبي في اللهيب**».

وأنا أقرأ هذا البيت كنت أقول في صمتي المريب: هل ستعود حنان الداودي في يوم ما لكتابة الشعر إذا ما غادرها كريم السعداني؟ ألن يجف هذا الينبوع من معاناة، أقصد ألن تجفف المعاناة ينبوعها يوم المغادرة ولو على سبيل الاحتمال؟.

## 33

ردا على رسالتها بدأت أولا بالاعتذار عن تأخري في الجواب بسبب «**سفري إلى غرناطة في إطار العمل الذي أقوم به في** (أماديوس إسبانيا للاتصالات)»، وأنني لم أتمكن من قراءة بريدي الإلكتروني من قبل وَ ..وَ.. و ثم أشرتُ إلى شيء تافه لا أدري كيف ارتقى إلى تفكيري وأنا أكتب إليها. أعني أنني شردت مع فكرة

مقحمة لا أدري الآن كيف استقامت في لغتي. ربما تصنعت أن تكون مبهمة، ولكنها في جميع الأحوال غير مجدية ولم تكن تحمل إليها أي معنى من المعاني التي كانت تراودني في تلك الأثناء. فما معنى «**يمكن لك أن تتصوري أنني أقوم بعمل تافه، وخصوصا في سني، غير أن التزامي مع الشركة يجعلني أحس بأنني أطبق قاعدة الولاء التقليدي المعروفة**». ما هذه القاعدة، ولمن هي كذلك؟ («**وأنني لا أستطيع القيام بأي شيء آخر للأسف الشديد**»). وفي نفس اليوم، وإن كنت لا أستطيع التأكد من ذلك، كتبتْ إلي حنان تقول: «**لا أريد أن أقول كلاما مألوفا إذا ما ذكرت لك أن أي عمل مهما كان لا يمكن أن يكون تافها، بل هو عمل يكتسب أهميته من طبيعة الشخص الذي يقوم به. أنت تذكرني يا سعد بكريم عندما يتكلم عن كبر سنه فلا أصدقه، لأنكما، لما بينكما من تشابه في التصورات والمواقف، حديقة ورود يانعة بالتأكيد**». واااو. وكان لي في هذه الرسالة بعض العزاء لأنني أصبحت موقنا إلى حد ما بأنني في مستوى كريم السعداني من حيث الاهتمام، وأن في ذلك ما يبعث على التفاؤل عند الاقتضاء.

ربما كانت رسالتي الموالية أعمق في التعبير عن الاهتمام الذي أصبح يخالجني، لأنني قلت لها بدون مواربة، علما بأنني كنت أسخّر لغتي بجميع ما أوتيت

من بيان لكي أجعلها تقتنع تماما بأنني صادق، حتى أنني كنت أقول مع نفسي: بالفعل أنا صادق في مناوراتي، وهذا كل ما في الأمر: «**حنان، أحب أن أقول لك بأنني متشبث بأن تكوني أنت المترجمة، لا سواك لذلك العمل ...الذي عندما قرأتُه أحسست أنه يجسد في مضمونه، بل وفي التفكير أيضا، ذلك الصراع التقليدي بين الحياة والموت، بل من الحياة إلى الموت كأنه الصراع الأبدي، وقد كتبه صاحبه لإحياء ذاكرة لا للشهادة، وأتمنى إذا ما قررت القيام بالترجمة أن يحالفك الحظ بقراءته بتمعن، راجيا أن أعرف رأيك فيه في الوقت المناسب...**».

34

كتبتْ إلي حنان يوم 4 نوفمبر ترد على كلامي بنوع من المجاملة التي خلتها في الحقيقة تلطفا تداعبني به قائلة: « ...**ذلك ما كنت أريده بالفعل، فحالما أتوصل بالعمل سوف أقرأه بطبيعة الحال بكل حميمية، ذلك أنني لا أقدم على ترجمة إلا إذا اقتنعت به، ولا أدخل إلى عالمه بأي تصور قبلي...**»، ثم أضافت قائلة في فقرة موالية: «**أعرف أنك سوف تساعدني على التكيف بطريقة حميمة مع هذا العمل، أقصد لو قررت الترجمة وساعدك الوقت...**» كيف تقول ذلك مطمئنة إلي وهي التي لا تستند في

ذلك إلا إلى حدسها فيما أظن؟ ثم في فقرة موالية تقول أيضا: «**غير أن المشكل المطروح هو أن الناشر حسب ما أخبرني بذلك قبل أيام يريد العمل مترجما في أجل قريب ...هذا مع العلم بأنني لم أتوصل بعد به**». وتمضي في تحفزها إلى رسالة أخرى كتبتها فيما يبدو في نفس اليوم قائلة: «**لقد بعثت قبل حين برسالة إلكترونية إلى الناشر أقول له فيها بأنني لم أتوصل بعد بأي شيء، وأطلب منه، لاعتبارات تتعلق بالوقت أيضا، أن يسارع بذلك...**». والظاهر أنها كانت تستعجل الموقف فانشغلت في تلك الأيام بالكتابة المتلاحقة، ولعلها كانت تريد أن يظهر لها الموقف كله في لمح قبل أن تقدم على المغامرة التي كانت تنتظرها. وفي رسالة موالية أعقبت تلك لعلها كانت بتاريخ 13 نوفمبر تقول: «**لقد طلب مني الناشر أن أصبر عليه أياما أخرى، غير أن اهتمامي بالمعرفة، كما يجب أن أعترف لك، لا يحد...**». أما قولها في نفس الرسالة إن «**الثقافة بمعناها النبيل والأصيل يمكن أن تنتصر في يوم ما، وهو ما قد يفتح أمامنا مجالا كونيا مشتركا، وللأسف الشديد فإن الدين يمكن أن يصيبنا بالاختناق...**» فلم أفهم منه إلا أنها كانت في تلك الأيام تود أن تتبادل معي بعض الاهتمامات الأخرى ذات الطابع الثقافي الصرف، مع علمي بأن إشارتها إلى الدين (أي دين؟) بدا لي

بدون موضوع ...على الأقل بيننا، فلم يسبق لي أن فاتحتها في الأمر، ولا جاء على لساني في الرسائل المرسلة إليها ما قد يفهم منه أنني أهتم بهذا الجانب المحيّر في تكوين الإنسان. هل كان في الأجواء المتلاطمة أبدا، في تلك الأيام، ما يبرر الحديث عن الموضوع حتى مع غياب الدواعي؟ ربما.

## 35

لاحظت أن رسائلها الأولى كانت إلى حد ما حيادية... لأنها كانت تستهلها في غالب ما كتبتْ بذكر الاسم الشخصي مرفقا بعبارات التحية الجارية بين المتعارفين، وكانت تنهي تلك الرسائل أيضا بعبارات حيادية كذلك من قبيل: إلى اللقاء، أو مع التحية.. هكذا باردة ميتة. أمام محاولاتي المتكررة، أو تلك التي كانت في البداية محاولة ظاهرة للإيقاع بها، أعني لاستدراجها في الحقيقة إلى شيء كنت أتمناه من غير علمها به، لم يكن يعنيها إلا أن تقول لي ذلك... حتى بنوع من الترفع الذي كنت أقابله، إذا ما فسرته، بالتودد. كنت أعلم، بل لعلي كنت أتصور، أنها تتمنع وسوف تتمنع وتتمنع ولكنها ما أن تصاب بالسهم العاطفي حتى تستسلم وادعة هادئة مطمئنة.

أشك تماما في أنني كنت أستهين بمعاناتها، أو أنني كنت أريد منافسة كريم السعداني في حبها إنْ كان يحبها (أشك في ذلك) بالفعل. كنت في بداية الأمر، على ما أذكر، أمارس حريتي في مطاردة الفريسة التي أتصور أنها سوف تكون بين يدي حتما إذا ما أحكمتُ بتمعن الطريقة التي أتبعها في الصيد. هراء في الواقع، إذ لم تكن لدي أية طريقة، ولا كنت قادرا على الإيقاع بها... فتركت للصدفة ما حبلت به الأيام اللاحقة.

في تلك الأيام كنت قد وصلت إلى مدريد للعمل في شركة معروفة تدعى (أماديوس إسبانيا للاتصالات) تستخدم الإشهار، من بين استخدامات أخرى، وسيلة للأغراء. بذلت جهدا مضنيا، في بداية الأمر، للعثور على مسكن مفروش أحتمي فيه من برودة مستهل الخريف في مدريد، ومن أحزاني حتما. ولما وجدته لم أتردد في الاتفاق مع صاحبته (مار) على جميع الشروط التي فرضتها على فرضا. قلت: الشركة هي التي تؤدي، ولكنني نسيت أنها، تلك الشركة، تقتطع حتما من أجرتي، بطريقة معينة، ما يوازي ذلك (احتراما) للعقد الذي يجمعني بها ويجمعها أيضا بمختلف العاملين من أمثالي.

الأيام الأولى مرهقة : أغادر موقعي في الصباح إلى العمل، أعود في المساء بحكم التوقيت المستمر الذي

تعوده الإسبانيون منذ فترة بعيدة. أحاول أن أبدي نوعا من التآلف. الإسبانيون مقبلون على الحياة في صخب، هل أجاري طمعهم ؟ حارس العمارة من البيرو لعله أخبرني ذات يوم أنه مجاز في علوم التربية. تصورت أنني قد أجد شيئا من الألفة معه إذا ما أقبلت عليه بهذا الفيض من الوحدة المقرفة. عبثا. متشابهان نحن في تلك الوضعية التي تشعر كل واحد منا حتما بأنه مهاجر مهما حاول أن يكون مقيما. ومع أنني بدأت أحس تدريجيا بالتغير، إلا أنني كنت في تلك الأثناء أجتر، على نحو ما، آثار تجربة سابقة كم حاولت مداراتها دون أن أفلح في التغلب على شعوري المستمر باليأس منها والإحباط من غيرها. كنت أريد المجيئ إلى هنا للخروج من رتابة العلاقات العامة المشحونة بالنميمة والبغضاء، وكنت في نفس الوقت موقنا، على نحو ما، أنه ما أن أجد نفسي في الخارج إلا وسأقوم بجني جميع المغانم التي قد تظهر لي في الطريق الإسباني المعبَّد. رغبة في النفس ملتاعة وأنا أريد التغيير القاطع، هذا كل ما في الأمر.

البداية الصعبة... هكذا كنت أقول بعد مضي الأسابيع الأولى. البداية الممكنة... وهكذا كنت أقول أيضا بعد أن لم أفلح، بالسرعة المطلوبة، في الخروج من الاغتراب البدائي الذي فاجأني منذ وصولي إلى

المطار في تلك الأيام. البدايات المتوقعة ...وهكذا كنت أقول مشيرا لا إلى بداية واحدة بل إلى أخريات أيضا قد أنخرط فيها بدون تخطيط ربما. وبين هذه التوقعات جميعها والحياة اليومية في إطار العمل الذي أصبحت أقوم به على شيء من الانسجام مع ما كان مطلوبا مني، فضلا عن الاستفادة من المجال العام الذي أقبلت عليه بنوع من التلقائية، أخذت جميع، أو معظم، الولاءات التي كانت تثير فيّ جميع الذكريات والأفكار والمنغصات والمواقف والتصورات والتقييمات والاهتمامات والشجون تنهال عليّ، ما كان من ذلك جميعا فاتنا يُشْعرك بالغصص، وما كان منه أليما يحسسك باليتَم، أو ما كان منه عجيبا يترك فيك منطبعا دهشته البدئية إلى الأبد... ثم جاء الزمن وفي قدومه الحثيث تقادم كل شيء، الداخل والخارج كذلك.

أقرأ رسالة مريم البدري من جديد[2] وأنا في مطعم (البقرة الأرجنتينية) وأضحك من غير استهزاء، وربما

---

2. الرباط، 6/29

«باسم الامل

تركتنا لنتعود على غيابك ونتذكر فقط اللحظات الحلوة التي جمعتنا صدفة في يوم لعبت فيه الاقدار...لو تدري كم أفتقد اللحظات التي كنت أخلو فيها بنفسي لأستأنس من خلال الكلمات بوجودك في حياتي، لحظات كانت تسهّل علي انتظار هاتف منك أو لقاء عابر..

أثار ضحكي فضول الآخرين واستهزاءهم مني، من تلك المخلوقة الرائعة حقا كيف لم تنس أبدا أنني تركتها عزلاء لا تحتمي إلا بالذكريات، على الأقل لفترة. الرسالة تقول لي شيئا من التعزية التي كنت في حاجة إلى سماعها لأنها توحي لي هنا، على الأقل، بأنني كنت محبوبا على نحو ما. متى يُقدّر الإنسان حالة الفقد: أعندما يكون محبوبا فيفتقد الحب، أم عندما يكون مكروها فينتابه الأسى؟ لست أدري.

ومنذ أن أخبرني صديقي الناشر بُعيْد وصولي إلى مدريد برغبته في أن أقترح عليه مترجما، لعلمه بأنني في ميدان يمكن له أن يستفيد من خبرتي فيه، حتى كتبت إلى مريم طالبا منها أن تفكر معي في هذا. أريد مترجما يا مريم، هل تعرفين شخصا يكون قادرا على ترجمة العمل الذي حدثك عنه؟ ومنذ أن أرشدتني إلى حنان الداودي نسيت تماما أنها صاحبة الفضل علي، مع التحذير، في هذه العلاقة المرتبكة، أو التي أخذت في التحول إلى شيء مرتبك على الأقل... ربما للسرعة المفرطة التي لا يتحكم فيها الراكبان وهما لا يعرفان بالضبط أية وجهة يقصدها السائق المتعجل.

من الحياد إلى الحياد. من الحياد إلى الإيحاء الذي غالبا ما كنتُ أفسره على الوجه المغري إرضاء لغرائزي. من الحياد إلى الاقتراح، وخصوصا عندما

قالت لي بالحرف بأنها على استعداد لكي نلتقي يوما ما. صرت أقول في اندفاع عاطفي متلهفا أكلم نفسي: متى أيتها المرأة التي أعرف صورتها ولا أعرفها إلا من خلال البريد، متى؟ من الحياد إلى النداء أيضا. الآن تقول لي مودّعة في الرسائل التي أعقبت الحياد: مع قبلاتي. أقول: كم من قبلة ماتت على شفتيك اليابستين بهذا الانتحار يا حنان ؟

ولما كانت رسالتها ليوم 6 نوفمبر[3] خاطبتني في المبتدإ بـ(سعد الغالي) وأنهت الرسالة بـ(أضمك إلي)،

---

3. فصاحتك تعطيني الرغبة في الكتابة وفي تذوق اللغة. وما كنت أتصور أني يمكن أن أتعلق بوطنك.. لم أعد أجد الوقت في هذه المدينة الغامضة لألقاك عبر الكتابة، أصبحت ضائعة فيها بعدما كنت أعشقها.. ربما كنت في الماضي أكثر سذاجة وبراءة لا أرى الأشياء كما تتراءى لي الآن.

أصبحت بين ليلة وأخرى مسؤولة عن أسرة صغيرة وكائن لا قدرة له على مقاومة ما يعيش معي.. يتعذب ويتحمل اكتئابي ومزاجي الذي يتأثر بأي حدث بسيط. لن أدخل في تفاصيل أنت في غنىً عن معرفتها. أردت فقط أن تعرف أن هذه المدينة تغيرت ولم تعد تستهويني كما كانت.. مدينة جُرّدت من هدوئها، كانت مليئة بالأمل للذين يؤمنون بالعدالة والحق والتغيير، وأصبحت غير آبهة بما يقع؛ الناس فيها أصبحوا بلا هدف ولارؤية ولامواقف....

صديقي العزيز،

لم تعد صديقاتك يشبعن عطشي في المعرفة ولم تعد تستهويني جلساتهن، حيث أصبحن يعشن حالات النميمة الدائمة... حاولت أن أكون محايدة وغير عابئة ولكني كرهت نفسي التي أطاعتني في الانصياع لعالمهن...قد أبدو لك تافهة في حديثي هذا ولكني بحاجة

وتحديدا في ذلك الختام السعيد الذي يبدو مزبد العواطف بـ(قبلاتي) أو (قبلاتي الحارة) وأقول كأني أمتحن قدرتي على التلهف: كم؟ هل هذا هو التحول الذي كنت أراهن عليه؟

## 36

في رسالة تقول لي: (**سأكون في المغرب يوم25 نوفمبر**). أما أنا فكنت في تيار آخر أقول لها في الجواب: «**لقد عدت أخيرا من بيروت التي لم تكن زيارتي الأولى إليها، بل الرابعة. وإذا ما استثنينا تلك المشاورات الجارية لتشكيل حكومة اتحاد وطني، فإن البلد فيما يبدو للزائر هادئ تماما. وقد علمت اليوم أن الوزراء الشيعة غادروا التشكيلة الحكومية للتفاوض على تلك التي قد تتشكل بعدها**». ثم أقول لها: «**لا أخبار عن صديقنا الناشر في الوقت الحالي، غير أنه بإمكاني عند اللزوم الحصول على نسخة من الكتاب من مصدر آخر إذا كان في الأمر بعض الاستعجال**». ولما حسبتها في جوابها المحتمل

---

لبناء نفسي من جديد. أعيش تحولاً قد يؤلمني ولكني أبحث عن القوة والصرامة والثقة والقدرة على مواجهة الحياة والاستمرار في العيش.. تجربتي معك علّمتني الصبر وحب الحياة وعلّمتني أن أختار وأن أستقل عن الاخر لأملك نفسي. وما عساني أن أقول وقد سكنتَ قلبي بشخصك الرائع...»

معلقة على رحلتي البيروتية ذكرتْ لي في رسالة أخرى، خلافا لما توقعت، بأنها سوف تمر فوق سماء مدريد («**أستعمل البراق عادة**»)، كما قالت لي بنوع من الإيحاء، «**فهل أطلب من الربان أن يلقي بي هكذا من علياء السفر إلى ناحيتك؟**»... هكذا مازحة كأنها تداعبني أو تغريني أو تريد، عن قصد، أن تقرأ خواطري. أذكر أنها شكرتني على نص كنت قد أرسلته إليها في الرسالة الإلكترونية السابقة لشاعر مرموق يشرح فيه الأسباب العميقة التي أثرت في تكوينه الشعري، ولكنها حدثتني بتعال عن أنها تعرف ذلك الشاعر وأنه، للأسف كما قالت للتخفيف من الإحراج، لا يمس أوتارها بشعره، بل وأنها مقتصدة في الإقبال عليه رغم الشهرة التي تسبقه، لأن (**الشعر والشهرة لا يلتقيان**) كما ادعت.

لم يكن من الوارد بتاتا أن أسافر إلى المغرب رغم الإغراء الذي يمكن أن يسبقني إلى حنايا تلك المرأة الذاهبة. غير أن هذا القرار الذي كان في جانب منه مرتبطا بطبيعة عملي لا بعواطفي سرعان ما تغير بصورة مفاجئة عندما ارتأت الشركة أن أكون أنا دون غيري من يقوم بالسفر فعلا إلى المغرب بحكم تجربتي السابقة في العمل هناك.

كتبت إلى حنان الداودي أقول مباشرة بعد هذا: «**مفاجأتان سارتان لكي أقول لك ما أحسه في هذه الأثناء:**

**الكتب التي بعثها إلي ورسالتك الإلكترونية ...وهذا في الوقت الذي أستعد فيه للسفر إلى المغرب. ولكن أتدرين ما المشكلة؟، المشكلة أنني بعد يومين من العمل هناك أغادر الرباط بالذات في اليوم الذي سوف تحطين أنت فيه بالدار البيضاء. هذه هي المشكلة».**

كانت رسالتي هذه بتاريخ 2 ديسمبر 2006 ، ولا أذكر إلا أنني طلبت منها أن تبعث إليَّ باستعجال برقم هاتفها في المغرب لكل غاية قد تتضح أمامي، وخصوصا إذا ما نويت الاتصال بها، هذا مع علمي، بطبيعة الحال، بأن ذلك سيكون في حكم المستحيل. وزدت في رسالتي بأنْ أشرتُ إلى أن بيننا بعض الموضوعات، الثقافية كما أكدت، العالقة يهمني أن نتبادل الرأي فيها في الوقت المناسب. هذه الرسالة أنهيتها قائلا: (**أقبلك بحرارة**). الرسالة كلها لُغْمٌ.

وأشعر الآن أنني خطوت خطوة لعلها لم تكن محسوبة نهائيا عندما كتبت إليها بصورة مفاجئة يوم 13ديسمبر بكثير من جرأة البدايات الأولى التي نرتجي من وراءها معرفة الموقف الآخر، موقفها هي عندما ستشرع في القراءة وما عساها محدثة كلماتي المشفرة والصريحة في نفسها من تفاعلات. كانت كلماتي المشفرة والصريحة ترمي إلى الاستمالة...

على الأرجح. هل فكرت في الأمر بهذا القدر التام من الوضوح؟ إنما قلت لها: «**لقد كنتِ البارحة أثناء محادثتنا الهاتفية رائعة وهادئة، فهل هي شخصيتك تلك كما أحسست بها من خلال الهاتف، أم أن الأمر مجرد تأويل لإحساسي الشخصي بصوتك عندما يهمس بالصمت والرقة الإنسانية. إنني لا أعبّر، وأرجو أن تتقبلي مني هذا التعبير، إلا عن إحساسي بالمودة تجاه شخصك كما قلت لمريم في رسالة عنك**».

37

لعلي، فيما أذكر، أرسلت الكتاب إلى حنان الداودي بعد أن أبطأ الناشر، كما واعدها وواعدني معها، بأن يفعل في أجل قريب. وغالب الظن كذلك أن إلحاحها المستمر على التوصل به كان لأمر معين، كما أفترض، كأن يفاجئها بشيء لا تعلمه إلا هيّ، هذا مع اعتقادي أيضا أنها كانت ربما في حاجة إلى التعويض المترتب عن الترجمة كما اتفق معها الناشر مقدما، وإن كان هذا التعويض غير ذي قيمة حقيقية في الغالب. وفي جميع الأحوال ففي رسالتها ليوم 15 نوفمبر2006 قالت بالحرف بما يكفي من الإعجاب: «**شكرا لك**

**يا سعد فالكتاب من الأهمية بمكان. لقد «تجرعته» لصغر حجمه دفعة واحدة هذا الصباح، تجرعته وأنا أرتعش، في انفعال... كما لو كان حكاية شعرية أو قصيدة طويلة، وأنا أشعر اليوم بنزلة برد وحمى، خففت عني آلامي»**. ثم خلصت إلى القول بنوع من المغالاة: «**لا يمكن لأية كتابة أخرى أن تكون بالنسبة إلي أكثر قربا إلى عقلي ولا أكثر تأثيرا في عواطفي ...شكرا مرة أخرى**».

لو يدري صاحب الكتاب. فقد يشعر لو قرأ هذا الكلام بشيء لم يكن من المتوقع أن يسمعه من مترجم، من مترجمة امرأة أعني. كيف تكون قوة النص هكذا مشفية تعافي مرتعشة من نزلة برد ولا أكون أنا على علم به؟ لم يكن يعني لي صاحب الكتاب شيئا، ولم أكن متأكدا من طبيعته ولا قيمته. سأدرك فيما بعد أنني قرأت لصاحبه بعض كتابات غيره هنا وهناك. ومع أنّ عملي لم يكن يسمح لي بأن أكون قارئ كتب محترف، إلا أنني، مع ذلك، كنت على إلمام معين بما يُنشر عادة من موضوعات في الصحافة لها اتصال، من قريب أو من بعيد، بموضوع الحديث. والحاصل أنني أصبحت متشوفا إلى الاطلاع على العمل الذي امتدحته حنان الداودي بكثير من الإعجاب في رسالتها بتاريخ15 نوفمبر2006.

وسأقول لها في رسالة بعد أن أخبرتني[4] من قبل بأنها شرعت في ترجمة الكتاب، وأن عليها أن تفي بوعدها في ترجمة القسم الأول منه قبل تاريخ معين، لعله 15 ديسمبر، قصد الحصول على الدعم من جهة فرنسية، وأنها أيضا قد تبعث إليّ بمسودة الترجمة قصد الاطلاع وإبداء الرأي... «**إليك مني تهنئة قلبية حارة، فقد أنجزت العمل في وقت قياسي. أنت رائعةَ قلب وروح ...ولا أضيف أكثر من ذلك. أريد أن أقول لك أيضًا إننا سوف نلتقي ذات يوم بكل تأكيد ...إلى ذلك الحين أقبلك بحرارة**».

## 38

صرت أقترب تدريجيا من حنان الداودي بنفس القدر الذي كنت أبتعد فيه عن مريم البدري، بل هذه كنت قد ابتعدتُ عنها بمسافة عاطفية أنستني شجون قلبي. في الحقيقة كنت قد ابتعدت عن مريم كثيرا، ورسائلها صارت باردة ومتباعدة وجوفاء لا قلب لها.

4. «قولك : لا أقل ولا أكثر ... هو الأصعب، كم هو صعب على التحقيق يا هذا. لقد عرفت كيف تقدم على الخطوة الأولى وأن تثير انفعالي. أتكلم عن رجل معين أرجوه أن يكون مختلفا. وأريد أن أقول لك أيضا أنني أخبرت الناشر بتطور عملية الترجمة، إذ من المفروض أن أسلم القسم الأول بتاريخ 15 ديسمبر تقريبا... أضمك بشوق. حنان»

وجودي هنا، الانهيار الذي أصاب العلاقة من قبل. ارتباكاتها الكثيرة الموسومة بالتردد والانفعال الذي كانت تبدو لي قيودا أحكمت من حولي جميع الأطواق الممكنة... لا أستطيع التخلص منها إلا بالهروب. المحاولات التي بذلتُها لإقناع المسؤولين في الشركة بضرورة انتقالي إلى مدريد. نفسيتي المكدرة أو المدمرة، لا فرق، التي لم تكن ترتاح، في الواقع، إلا في هذا البحث المضني عن العلاقات المختلفة، الجديدة، أو ربما تلك التي أستطيع التحكم فيها لا أن تأخذني من رقبتي إلى الدمار أو إلى السعار. أزيد على ذلك أنني أدركت بالفعل أن نهاية جميع العلاقات، بما في ذلك تلك التي نتوهم أنها خالدة لن يتكدر لها صفو، هو إيذان بكسرها، وأن الكسر كيفما كانت (الجبيرة) لا يمكن أن تعيد للعضو صحته. انتهت العلاقة، فلا داعي للمكابرة. أتكون مريم البدري هي التي استعجلت مصير علاقتنا المشتركة دافعة إياها إلى الهاوية، أم أكون أنا صاحب الطبع الممتقع المتبرم المسؤول وحدي عن الفشل الذي أعانيه في تجاربي المخاتلة مع النساء؟ سأقول: أنا السبب تجنبا للعناد، وأنا العجب سببا في العُجَاب، فكلما دفعتُني إلى الكبرياء إلا وارتميت في أحضان الفتور... وهذا كان السبب في كل شيء منذ بدء خليقتي إلى يوم فراقي.

مريم، كما أدركت أيضا، لم تكن تحتاج، في الحقيقة، إلا إلى سياق. ربما ملت رجولتي الملتوية، بل الغادرة، وزادها أنني لم أكن أساعدها في أي شيء هي التي كانت قد تخرجت حديثا من كلية الآداب، وشرعت تبحث مع الباحثين الذين كانوا يتلوّون من الفراغ أمام البرلمان، في تلك السنوات، عن العمل المستحيل. وفيما كانت العلاقة تتلبد كالسماء المحزونة، على ما فهمت، ظهرت حالات في أجوائها العامة ما كان لها إلا أن تجرفها في الاتجاه الطاغي، أقصد إلى حيث كنت أنا نفسي أريد لها أن تستقر، لا أقصد في النسيان، ربما في العدم، بل ربما، في الذاكرة أيضا... حتى لا تتحطم صورتها الأنيقة التي كانت تحدثني دائما عن العشق. أقصد الذاكرة الأخيرة، إن كانت موجودة، التي لها وحدها أن تحنط العلاقة في تاريخ لا يقربه المحو ولا يلتوي عليه ذبول. هناك كنت أريدها لأنني كنت بين اليقين الذي يطالبني بأن أبتعد عنها، وبين الشك الذي يدعوني إلى مزيد من الارتباط بها. كنت، كما أظن، في المابين: كراهية مقيتة لا تصمد في عشق امرأة، وحب موتور لا يليق بفاتر همة. ولما تسارعت الأحداث وقررتُ المجيء إلى مدريد تدبر كل واحد منا أمره بدون ندب ولا جرح، أريد القول

بدون ذلك الألم الجوهري الذي ورثته العلاقة بين المرأة والرجل من أزل بعيد، فلجأنا إلى البدايات أو النهايات، سيان، لكي نستعيد ألفتنا بالحياة مرة أخرى، أو هذا ما تهيأ لي في ذلك الوقت. كنت قد أرسلتُ إلى مريم البدري رسالتي الأخيرة، أو تلك التي تصورت، واهما، أنها ستكون الأخيرة، في تلك الأيام التي اتخذتُ فيها قراري بالذهاب، ولن أنسى مطلقا تلك الرسالة التي وصلتني منها، من مريم نفسها، واعتبرتُها، بدون تردد، آخر رسائل الوداع الذي تكون فيه النفس حَيْرى والقلب مشجونا والعواطف ملتاعة: «**أهلا صديقي** (هكذا فقط) **وصلتني رسالتك، أرجو لك على الدوام مقاما طيبا وفرحا كبيرا، هذا أكيد. طبعا مرت أشياء جميلة لن أنساها، وأشياء قاسية نسيتها مع الزمن، لا أريد أن أتذكر إلا الجميل من الأيام التي مضت، وسنلتقي في الأيام القادمة، هذا أكيد وهي رغبتي أيضا، أحييك وأسلم عليك**».

يحيرني باستمرار: لماذا أرشدتني مريم إلى حنان الداودي وحذرتني من نفسي أنا في رسالة واحدة، وهي التي كانت تعلم أنني، كما كانت تقول، أتقن (الغدر)، تقولها مازحة حتى لا أفقد صوابي الحزين؟ ما زالت رسالتها الإلكترونية، بعد أن آنسنا من نفسيْنا شيئا مما دعوناه بالصداقة لا الحب، تَرِنّ في أذني كأنها

الصراخ المُجَلّى الذي لا يعلو عليه شيء وتقول لي حرفيا: «**أهلا صديقي، ربما تعارفنا كثيرا، وربما لم تعرفني جيدا كذلك، نعم أنا سيدة مليئة بالأسرار وقد لا تحكي أبدا، أما لماذا أرسلت الصورة، ربما رغبة مني في جعلك تتعرف على حنان، لست أدري، وفي نفس الوقت أخاف عليها من تجربة جديدة قد تعصف بها، وأريد لك، في نفس الآن، سيدة تليق بك، وهذه السيدة هي حنان نفسها بما فيها من جمال وعذوبة وحواس رائعة. لا أخفيك أود لكما السعادة لأن كلا منكما عاش حياة صعبة، ما رأيك في هذا التفكير؟**»).

لقد تعارفنا مدة. مريم البدري لا تقول أن ما كان بيننا هو الحب الذي كاد الحجر يتفتت من هياجه وجموحه في بعض اللحظات. لا تريد أن تقول ذلك فيما يبدو والرسالة غامضة. أنا لا أعرفها جيدا؟ ماذا تقول هذه؟ أو لم أتمكن، كما تدعي، من معرفتها كما هي. هذا غير صحيح البتة، لأنني في ذلك الحب واصلت السير في دربها إلى منتهاه، فعرفت طبعها وردود فعلها وغيرتها وطبعها الشبقي وانخراطها في تلك اللذات التي كانت تشفي غليل الأمنيات. غير أن ما بقي لها مني فيه مرارة، لأنها قالت في نفس الرسالة بكثير من الحسرة: «**لا أخفيك أن الإنسان الذي تعزه فعلا تتمنى له التوفيق في حياته الخاصة رغم أنك لم تنجح** (لاحظ كيف تتكلم عن نفسها بالفعل!) **في علاقتك به، وهذه**

**أنا بكل بساطة، أتمنى لك راحة البال يا صديقي...»**. هي سيدة مليئة بالأسرار. لعلي قلت لها ذلك في رسالة، فلم تتردد في التعليق المُر من خلال شعورها الحاد بأنني، ربما، أخابثها. والقضية التي تثيرها في وجهي هي: لماذا أرسلتْ لي صورة حنان الداودي؟ أذكر أنني طلبت منها أن تدلني على مترجم لا على صورة ما أو صورته. أما وأنها تصورت كل شيء على نحو ما بدا لها في خيالها الشديد التهيؤات، الماكر في بعض الأحيان، فأمر لا شك فيه، لأنها أوجدتني في علاقة من عدم، وتصورتْ، فوق ذلك، أن تلك العلاقة تناسبني أيما تناسب، ثم شرعتْ، حين سألتها مازحا لماذا صورة حنان الداودي بالذات، تبتدع المواقف والمقامات التي رأتْ، في تمام يقينها، أنها تليق بي حقا. أظنها كانت صادقة مع نفسها ومعي أيضا، ومعي بالخصوص، بل وأشعر، في الواقع، أنها أطلعتني على الحقيقة النفسية التي غالبا ما تتحداني والتي كنت أريد إخفاءها تماما، وأعني بها تلك الرغبة الجامحة في تصيد الفرص المتاحة لاغتنامها بالسرعة الممكنة حتى لا تفلت مني نهائيا. وقد أثنت مريم على حنان الداودي كأنها تزفها إلى شخص غريب مؤكدة على جمالها وعذوبتها...إلخ، بل والأهم من ذلك أنها رجت لنا، لي ولها، كامل السعادة كما لو أننا كنا في

شهر عسل لذيذ في إسطانبول بعد زواج تقليدي أقامته لنا في ( قصر القباج) بدون استئذان.

## 39

راجعت بكثير من الاهتمام كيف طلبتُ من مريم البدري أن تدلني على مترجم تعرفه، فوجدت في تلك المراجعة حقا أنها أثارت معي الأمر في ثلاث رسائل على الأقل. والرسالة المعلومة، تلك التي اعتبرتُها أكثر من بيان تحذير لو سولت لي نفسي التفكير في أية علاقة مع حنان الداودي، كانت في الواقع هي الأخيرة. هكذا وضعتْ فيها مريم البدري، الحاكمة بأمر الحب، خلاصة موقف وانتهى الأمر. غير أنها في الرسالة الأخرى، لعلها الأولى فيما يرجع للموضوع، أخبرتني بكثير من الجد والوفاء الذي عهدتهما فيها بأنها اتصلت بصديقتها المترجمة وأبدت هذه موافقتها التامة على القيام بالترجمة «**أما عن اسمها فهو حنان الداودي، وتعيش في باريز، وقد ترجمت عددا من الأعمال إلى اللغة الفرنسية وخصوصا منها الشعرية، وهي شاعرة أيضا وتكتب باللغة الفرنسية**»... وأضافت، لمزيد من التوضيح الذي لم أطلبه منها ولا طلبه مني صديقي الناشر «**وهي صديقة عمري، أي أنني أعرفها منذ ثلاثين سنة..**»).

غير أنني وجدت أن الرسالة المحيرة هي تلك التي توصلت بها يوم 23 ديسمبر أياما بعد أن شرعت أنا بدوري، بناء على اقتراحها، في الاتصال بحنان الداودي طالبا منها، بكل تأدب وإحراج، أن تقبل القيام بترجمة كتاب أدبي بناء على اقتراح من ناشر... إلخ، بل وأظن أن علاقتي بهذه المترجمة المسماة حنان الداودي كانت قد دخلت، منذ تلك اللحظة، في حيز التأويل الذي شرعتُ في نسجه حولها بكثير من الاستيهام. الرسالة محيرة بالفعل لأن مريم البدري فاجأتني بقولها «**أهلا صديقي: أعرف الكثير عن حنان، علاقتها بكريم السعداني باءت بالفشل خاصة بعد مرضه، فهو بدأ يرفض هذا الارتباط لأنه يشعر بإحساس غامض بقرب النهاية، وهو ما أساء إلى حنان ولنفسيتها، لذا تفتت العلاقة وبقيتْ منها محض صداقة بعيدة، ولكن هذه الأمور عادية وهي تحدث الآن بعد ظروف مرضه الصعب والذي، على ما يبدو، لن تكون نهايته سعيدة على كل حال. لا عليك صديقي، هي أشياء تكلمت معك فيها بكل صراحة، وأتمنى لك التوفيق في أيامك القادمة وفي أحلامك كذلك، لقد عشتُ أشياء صعبة أنا أيضا وأنت تعرفها وتعرف الكثير عني، ولكنني اليوم أحس بالراحة والاستقرار وبالرغبة في الحياة...**».

الرسالة المحيرة... لأن مريم البدري لم تتكلم فقط عن حياتها الجديدة بعد الفشل الذي منيت به

تجربتنا، ولا همست لي بأنها تسبح في ملكوت آخر، ربما، من الحب المتجدد، ولا عن فترة ما، لعلها تلك التي كانت لنا معا، غالبا ما كانت تُشعرني بصعوبتها وآلامها الذاتية خصوصا إذا ما أثارت رسائلي فيها بعض الشجون... بل، وهنا جانب الحيرة، أفتتُ نهائيا في طبيعة العلاقة التي كانت لحنان، صديقتها العزيزة كما كانت تقول، مع كريم السعداني الذي كان، في تلك الأيام، نزيل مستشفى في باريز يعاني آلام مرضه العضال. أظن أن مريم البدري أرادت أن تتوقع، حتى تبرز حججها للعيان، نهاية ما لمعاناة كريم القاسية التي كانت تعرفها فيما يبدو عن طريق حنان.

لم يكن من المعروف إلا للبعض أن وصول كريم السعداني إلى باريز كان بمثابة ...أريد القول: رحلته الأخيرة التي إما أن يعود منها آملا، أمل المدركين لفَجَاءة المصائر، فيما تبقى له من الحياة، أو أن يقتنع بصورة تامة بأن النهاية، كأية نهاية محتمة، لا محالة أتية. الاقتناع النهائي بأنه مُوَدِّع وهو حي يتألم... هكذا كانت تقول حنان الداودي ولا تمل من تكراره كلما سألتُها عنه في الرسائل الأخيرة التي تبادلناها أيامها. ولا أشك في أن حنان، فضلا عن الارتباكات الكثيرة التي استبدت بها، كانت تتشبث أيما تشبث بروحه المتلاشية، ولا تريد الافتراق عنه إلا إذا كان هناك داع ملح لذلك كالموت.

ينتمي كريم إلى أسرة بدوية، وكانت أمه، على الأرجح، قد توفيت منذ زمن بعيد، ولم يبق له من دنيا العائلة إلا بعض الأفراد، بما في ذلك والده، الذي فيما يبدو لم يكن على علاقة طيبة بباقي أفراد عائلته، على الأقل منذ أن أصبح كريم شخصية عمومية في المجال الذي كان يعمل فيه. الإحراجات الكثيرة التي تتعقب الشخصية العمومية، حيثما حل وارتحل، من طرف جميع أولئك الذين لا يرون لحياتهم في الدنيا أي معنى إلا عن طريق المساعدة التي يترجونها منك، أو الدعم الذي ينتظرونه من شخصيتك تلك. لم يكن بإمكان كريم أن يتحرر بتاتا من الطبع البدوي إلا عن طريق التسويف والهروب وقطع الطريق على المتسولين. لعله، كما قيل، تَرفّع في شخصيته العمومية تلك، أو وضع نفسه في سحاب الأوهام التي كانت تنشرها، فصار يتصرف في جميع المقامات كما لو كان عظيما لا حدود للعظمة التي يتقمصها. لا أظن أن الأصدقاء القليلين الذين كانوا له، بسبب صمته الشديد الذي غالبا ما كان يخفي حقائقه الأولية، قبلوا منه ذلك بسهولة، ولذلك أحاط نفسه بثلة من المنتفعين، نساء ورجالا، لم يمحضوه إلا الولاء... الذي كان في غنى عنه في تلك اللحظات الأليمة من حياته المتبقية. كان لي صديق يقول، وهو يتصنع مظهر حكيم أتاه البيان

متأخرا: لا خير في مجد لا يأتي في أوانه، ولا نفع منه إذا جاء بعد ذهاب الأوان. ربما حنان الداودي هي التي قالت في تلك الفترة بالذات: إنه، كريم، وهو على فراش الألم، الذي يسميه الناس تلطفا فراش المرض، لم يحظ بالوفاء الذي ربما كان ينتظره، لأن الذين أحاطوا به خذلوه من خلال طلباتهم الملحة للانتفاع من جميع المغانم التي ظنوا أنها سوف تهرب منهم لو رحل في غفلة عنهم. ومن المفارقات أنه صار كذلك، إي في عظمته وغفلته، إذا صح ذلك، في تلك العلاقة التي جمعته بحنان الداودي، أو هذا ما كانت تقوله هي عنه بنوع من التشفي والمغص القلبي الحزين. كنت أحب أن أسمع منها كل شيء، لأنني كنت أبحث في الحقيقة عن امرأة واضحة تصارحني، حتى وهي تتفنن في اختبار عواطفي، بكل شيء تقريبا. ألم أكن أجد، على نحو ما، في بعض الرسائل التي تبادلناها كثيرا مما كان يتطابق مع الفهم الذي كان لي عن كريم من أيام تجاربنا المشتركة؟ تلك قصة أخرى بالطبع.

يثيرني حقا أن حنان لم تكن تخفي شيئا عن صديقتها مريم البدري، حتى صرتُ أنا بدوري في مركز أو، على الأصح، في مهب تقاطع أخبار وعلاقات ومصائر لا تعنيني في أي شيء بتاتا، لأنها لم تعد تخفي عني، أنا أيضا، أي شيء. بوَّاحةٌ هذه المرأة

التي كانت قد شرعت في ترجمة الكتاب الأدبي وأنا ألاحق مصيرها، منذ البداية، منشغلا بالتطورات التي تحدث في أجوائها المتقلبة... نحوي.

حنان إذن تترجم الكتاب وأنا على اتصال مستمر بها أخطط لشيء لم يستقم بعد في دماغي، هذا صحيح. مريم البدري تخبرني بشيء وبنقيضه وتحاول أن تكون بيني وبين حنان الداودي، ألاحظ ذلك بكثير من الاهتمام وأفكر فيه. مريم تعرف جميع التفاصيل التي استقرت في جسد كريم وفي العلاقة، كما قالت لي في رسالة، وهي في طور الوداع الأخير. أنا بدوري بين هذه الأمور جميعها لم تعد تفوتني التفاصيل الصغيرة التي تهب على حنان أو على مريم أو على كريم... وهكذا. من قال: إن من لا يعرف الأعراض لا يعرف الجواهر؟.

بدأت أشعر، في واقع الأمر، بما كنت في غنى عن الشعور به ولم يكن قد مضى على استقراري في مدريد إلا بعض الوقت، أي الرتابة والملل والاغتراب المقترن بتتبعي لاهتمامات الآخرين وشؤون حيواتهم. أذهب إلى العمل كدأبي منذ أن تآلفت تدريجيا مع أجواء الشركة. أبحث عن العلاقات الجديدة، ولكن لا على حساب شهواتي المستعرة، المستعرة بالفعل، لأنني ما استذوقتُ طعام أهل هذه المدينة البتة منذ أن حللت

بها... مع علمي أنني لست إلا في الشهور الأولى، أقصد الطعام القادر على إخماد التوترات التي يفوح شواظها مني. مدريد الآن مدينة مختلفة، وهذا يكفي. غير أنني لست فيها إلا واحدا من الهائمين المهاجرين العابرين الذين أصبحوا في السنوات الأخيرة يملأون لغات أهل البلد بالعبارات الممقوتة الفواحة بكل المكاره. أنا واحد. الآخرون المهاجرون مثلي، رغم العدد الهائل المهدد بالكراهية، متوحدون مهما ارتبطوا، قانطون مهما انتشروا، شواذ مهما انسجموا، أغيار مهما تآخوا في حلمهم مع أبناء البلد. يشعر الواحد، ولو كان باردا جافا تكسوه العظام، بالوخز. ومع ذلك أمارس شيئا من الرياضة البدنية التي أعلل بها طمعي في الصحة راجيا، في كثير من المناجاة التلقائية، ألا تخونني قواي وأنا على قيد البقاء. أقرأ وأجد في القراءة، في غياب المدركات الأخرى، بعض العوالم المفتقدة. الطفل أنا حين أسترخي فتحملني أوهامي، على بساط الحلم اللذيذ، إلى تلك الأيام التي كنتها في مدينة ما، في الزقاق الذي تبتدعه الحكايات، في علاقة بدئية يأتيها الحب كأنه الوحي النبوي الذي يعالج البدن بالحمى والتأوهات، في المجالات المفترضة التي قطعتها الطفولة في شرودها الأبدي لا تعني لها الحياة إلا الاندفاع والتوله والمغامرة. هذا

هو الهروب الممكن الذي تسبقني إليه خطى أحلامي معا. أستعيد كياني فجأة من طوافه. أفتح عيني على وجودي الواعي بأنني في المدينة التي اخترت عن طواعية أنْ أبدأ فيها لعنتي. وأجدد ارتباطي القدري بالاهتمامات اليومية، ثم أعود إلى المرمى الذي كنت استعد للترامي عليه.

أعقل حياتي برزانة تُذهب عني الشجون والأحلام المنتشية بأوهامها المتهادية. أقول في تمام وعي يقظ: سأبدأ من جديد، فبهذه البداية يتحقق التكرار اليومي الذي يعذبني، وبها أيضا يخف عذابي اليومي من شدة التكرار. هل كنت متوحدا إلى هذا الحد؟ إذن أنا رجل متوحد بدون أي سبب إنساني يدعو إلى التفاؤل. أنا رجل استفحَلتْ فيه التجارب حتى غدا عاجزا عن الحياة التلقائية. هل تراه استشهد قرب اعتصاراته وهو سقيم؟.

## 40

لا أعرف بالضبط ما المناسبة التي جعلتني أكتب إلى حنان الداودي في رسالتي ليوم 14 ديسمبر جملة شذرية هكذا: ( ...**إلا فيما يرجع للعواطف... هذه التي تقولين**). هل كنت أعقّب على شيء قالته في رسالة

سابقة كما كنت أفعل باستمرار. أريد أن أُظْهِر لها نوعا الاهتمام المكتوم الذي أوليه، بعناية زائدة، لرسائلها. هل كنت ألمح لشيء آخر لم يكن واضحا في ذهني؟ لست أدري. إنما الشيء الذي أدريه تماما أنها كتبت إلي بتاريخ 13 ديسمبر 2006 قائلة: «**أنا بالفعل ذات طبع هادئ جدا ولا أعرف أن أكون غير ذلك... إلا فيما يرجع للعواطف بالطبع. هل أصدق بأن الصمت والرقة الإنسانية، كما تقول لي، جعلاني أنسى أننا استمعنا إلى بعضيْنا اليوم وليس البارحة كما تدعي، أم أن الأمور اختلطت عليك تماما؟ سأقول لك شيئا أنا على يقين منه: لقد كان من المفروض أن نلتقي في المغرب، إلا أن الظروف لم تتهيأ بعد لذلك فيما يبدو، فثق في جميع الأحوال بأنني أنا هي تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تزور سليم في ذلك المكان المعقد والسهل في آن... هل فهمت؟ أما من جهة أخرى فإن النص الذي أقوم بترجمته يجب أن أفرغ منه، كما حدد لي الناشر، قبل متم مارس، وسوف أبعث إليك بالصيغة الأولى في الوقت المناسب لا للتأكد من انسجامها من النص العربي بل لمعرفة هل استطاع المعنى الأصلي اختراق بنية اللغة الفرنسية. أقبلك**».

ما معنى هذا التعبير الذي ظل لفترة طويلة يستعصي على فهمي: (**استمعنا إلى بعضيْنا اليوم وليس البارحة كما تدعي**). أدركت في بادئ الأمر أنها تشير إلى مكالمة

هاتفية كانت بيننا. أنا متأكد أن الهاتف لم يرن أبدا في أذنها ولا كان بيننا ما قد يدعوه إلى الرنين تلك الأيام. فماذا تقصد أيضا؟ حاولت أن أثبت في إدراك المعاني القريبة، المباشرة، تلك التي تقولها، حتى لا يشرد خاطري فأتوهم ما لم تتوهمْه هي. هل كانت تذكرني بحلم نسيته ورأتْ هي في حلمها ما لم تستطع نسيانه؟ عجزت. لعل المعاني لم تطاوعها، هكذا قلت، المعاني التي كانت تحب أن تنسج من خلالها بعض أفكار جياشة، موحية، ساذجة، داعرة ربما، من يدري؟ أو لعلها أرادت أن تقول شيئا وقالت عكسه تماما كما يحدث عادة في جميع الخطابات المبهمة التي لا يريد منها كتابها إلا إحداث المفاجأة. فإذا كان هذا هو المقصود فإن الرسالة كلها، في الواقع، كتبت بنفس المداد. وحين كنت أظن أن الحيرة سوف تنتهي مع حالة الإبهام التي تركتْها في نفس العبرات السابقة، إذا بالجمل المتلاحقة التي تلاصقت عنوة في إثر بعضها جعلتني أتأكد، مع الاستغراب الذي يستولي على المرء في هذه الحالة، من أن حنان الداودي تعرف الكثير الكثير عني. وهذا هو الراجح ولا بد منه.

أنا لست صورة، بل وقائع حياة.

هذا هو المهم ،كما قلت محدثا نفسي، بعد أن، كما تابعتُ أقول، انكشفتْ لعبتي ربما.

القضية إذن أن مريم البدري على الأرجح، بل هي بالذات، وراء كل هذا. أقرأ رسالة مريم من جديد فأجد فيها قصتي هذه المحيرة. تقول مريم: «**أخاف عليها من تجربة جديدة قد تعصف بها، وأريد لك في نفس الآن سيدة تليق بك، وهذه السيدة هي حنان نفسها بما فيها من جمال وعذوبة وحواس رائعة**». الآن فهمت. تبعث لي بالصورة وتقول لها كل شيء عني. تقترح عليّ المترجمة وتريد، في نفس الآن، أن تحبك من حولي قصة عاطفية مشوقة. لقد أدركتْ تلك المرأة، بحس تحتدم فيه الرغبات، حس المرأة الثاقب النابه، الحار كذلك، وخصوصا بعد أن انتهتْ علاقتنا، أنني في أمس الحاجة إليها، إلى القصة العاطفية المشوقة التي تراني فيها، كما كانت تراني باستمرار، هادئا مطمئنا لعوبا مقبلا عليها...إلخ. لا أظن أن تحذيرها لي كان مصيدة مدبرة كما خمنت للوهلة الأولى. لا أظن أن الرسالة التي امتدحت فيها حنان الداودي (...**بما فيها من جمال وعذوبة وحواس رائعة**) كانت للإيقاع بي في شرك. لا أظن أن مريم الوديعة قادرة، في يوم ما، على الإساءة... كما قلت على شيء من الحنين إلى طبعها الهادئ.

وحين ذكرتني حنان، إذن، بتلك الفتاة، هيَّ، التي كانت تزور سليم في ذلك (**المكان المعقد والسهل في**

آن) كما تقول، علمت، بكل تأكيد، أنها استمدت جميع معلوماتها عني من معدن الصداقة التي تجمعها بمريم. أعلم أن إشارتها تلك إلى الزيارة لا تذكرني بشيء على وجه التحديد، ولكنني وجدت فيها ذلك البحث المؤكد الذي تبذله، برغبة وشغف على الأرجح، للتقرب من الأسرار التي كنت أملكها عن نفسي، أسراري الخاصة التي لم أعد أطيق البوح بها لأي كان. الفتاة الصغيرة التي توحي لي بجميع المسافات الممكنة. المسافة الزمنية، فهل بعدت حتى أصبحت أنا علامة على الكبر والاندثار؟ المسافة التاريخية، بِكَمْ من السنوات تصغرني أو أكبرها؟ كيف أحدد سنها إذا ما أكدتُ لها بأنني أعرف تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تزور سليم؟ المسافة الوجدانية، فهل أستطيع الانفعال الباطني بنفس العمق الذي كنت أبديه مزهوا أمام نسمة هواء مختلفة إذا ما هبت على وجداني؟ لا أستطيع الاقتراب من المسافات الأخرى، المسافات غير المذكورة، تلك التي لم تبح بها لحد الآن، فهل تكون حنان الداودي قد قدمت لي عربون معرفتها المدققة بجميع الأوضاع التي أحياها، أو كنت أحياها، في تلك الفترات العصية الصعبة من حياتي في المغرب؟ هل أصدق هذا ؟.

## 41

كتبتْ بالفرنسية قائلة: «**أنا متأكدة، من خلال عواطفي يا سعد، بأن كلماتك مذهلة،** (ثم كتبت بالعربية) **أيحق أن تعوّدني على ردودك الممتعة ثم تنقطع عني؟ هذا حرام في دين الصداقة، على أني لا ألومك طبعا، ولكن انهماكي في قراءة الكتاب يجعلني في انتظار، مع المودة الصادقة**».

ها هي حنان الداودي، بدون تدبر فيما يبدو لي، تقترب مني اقترابا. أأقول إنني النار التي إذا ما لامستني أحرقها؟ أوَلَم أقل من قبل (**لماذا أقترب من النار وأنا أعرف جنون لهيبها الحارق؟**). وماذا تقول هي؟ هل هو الاقتراب هذا بالفعل، أم أن خيالي يزين لي شيئا تهفو إليه نفسي؟.

«**كلماتك مذهلة**»... هي التي تقول في منتهى الإعجاب: هل صدرت عني تلك الكلمات؟ في لحظة سهو لو حصل؟ في رسائلي لم أكن وقتها قد خرجت، ولو لماما، عن البيان الخجول، الملتبس، المداعب الذي طاوعني لأول مرة. المخطط، مخططي، لم يتبدل، والمعطيات الوقتية التي كانت تمنحني إياها الرسائل المتواترة لم تتجدد بالكامل، ولا يمكنني مهما حاولت أن أستعجل التجارب. لقد علمتني التجارب السابقة أن الاختيارات التي نرسمها تأتي

ولا نذهب إليها، أو قد نذهب إليها ولكنها تأتي هي أيضا، وحين تأتي بطواعيتها التامة نتملكها بدلا من أن تتملكنا. هذا هو المهم. أَمُهِمٌ بالفعل كما أقول؟ تقول حنان: «**أنا متأكدة، من خلال عواطفي...**». كيف تدعي شيئا في مثل هذا مع أن العلاقة لم تستقم بعد بيننا على أي وجه؟ وتضيف: (**هذا حرام في دين الصداقة**). متى قامت هذه العلاقة حتى استقرت؟ أنا أخطط وهي تنتظر على الأرجح. كيف إذن تظهر على حين غرة تلك العواطف التي قد تستقر بين التخطيط والانتظار؟ ربما كانت تناجي وحدتها، أوَلَمْ تكن أيضا في مكنون تلك الاستفاقة التي تباغت كريم السعداني عندما تكون إلى جانبه على حاشية السرير بين الحين والآخر؟ السرير الذي ترقد فيه روحه المتعبة وهي أسيانة ذاهلة ؟ وحين كتبتْ إليّ، في نفس الرسالة، بعد ذلك بالعربية أيقنت أنها كانت تعقب على كلمات سابقة لا أعرف تقريبا كيف كتبتُها، أنا بدوري، بالعربية، وربما امتدحت فيها، بنوع من العطف، كثيرا من الصفات الاستثنائية... لا بل الصفات فقط التي تتحلى بها. هي الصفات التي كانت تتهيأ لي غالبا في حلم عابر، من خلال الرسائل المتبادلة التي كانت تطلعني، في بعض الأحيان، على خُلق رفيق.

أذكر أنني قلت لها في رسالتي ليوم 13 ديسمبر ما يشبه الغزل في كلمتين لمّاحتيْن: «... **لقد كنت البارحة أثناء محادثتنا الهاتفية رائعة وهادئة...**». الروعة والهدوء. لعل ذلك هو الأبقى في قلبها من تلك الكلمات التي أطلقتها في الهواء لاقتناص شيء من الأوهام التي قد تراودها. هكذا أحب أن أتصور الموقف كله، لأنني لم أعد أذكر تلك التركيبة السحرية التي انطوى عليها تعبيري المراوغ. أقصد ذلك التعبير الذي أخذ بيدها طائعة إلى حيث كنت أقيم في عزلتي الإسبانية. بل وأريد القول إنني لا أذكر إلا الكلام الرامز الذي تدفقتْ منه معاني الاشتياق الوارد في الرسالة.

في نفس الرسالة كانت حيلتي ولوعتي فأضفت قائلا: «...**إلا فيما يرجع للعواطف... وتقولين ذلك بيقين واقتناع صادقين، أو ذلك على الأقل ما فهمته. بين الهدوء المبجل والفوران اللاهب اختلاف ضئيل. إن للطبيعة الإنسانية خصوصية استثنائية، وبما أنها خاصة فهي متفردة وبما أنها استثنائية فهي شمولية... في نفس الوقت**». ثم سألتها لغير ما سبب ظاهر: «**متى تعودين إلى باريز؟**»، وأنهيتها على سبيل الختم بتركيب ملتو: «**سعد، مع كل صداقتي الأكيدة**».

## 42

عندما أعدت قراءة رسالتي إلى حنان الداودي بتاريخ 13 ديسمبر أدركتُ أنني كتبت إليها بعد عودتي من تونس التي كنت قد وصلتها، في تلك الأيام، مندوبا عن الشركة الأم لإبرام اتفاقية مع شركة مماثلة. في فندق (المنزه) راقبت عز العرب الذي جاء من المغرب مندوبا عن نفس الشركة وهو يتعقب، بعينين لاعبتين، فتاة خلْت أنها مغربية كانت تتهادى في ردهة الفندق. ربما كان متوترا لأسباب. علت جلبة قرب المصاعد في الناحية المقابلة لمكان الاستقبال. من الظاهر أن الفندق في مرج عرس تونسي يقام في ذلك اليوم بمناسبة ما. الإحساس الذي يخالجني بقوة هو الغربة. الإحساس الذي يتعقبني كلما حللت بهذه العاصمة أيضا هو التذمر... من أيام واقعة حدثت لي هنا، فلم أعد أستطيع التفكير إلا وأنا في قبضة رجال أمن حسبوا، بدون تفكير، أنني مبعوث لقضية سياسية. اختفى عز العرب أو يبدو أنه تبع الفتاة بعد أن تكون، في الواقع، قد استجابت له تحت سماء من الإغراءات المتدافعة التي صدرت عنه في توتر فيما يبدو. أنا نفسي عندما خرجت من الفندق متجها نحو شارع السابع من نوفمبر، الذي كان في يوم ما يردد

اسم الحبيب بورقيبة، راقبت حركات أشخاص بدت لي في منتهى الطيش. الظاهر أنهم يتصيدون الزبناء هناك لأمر يقصدون من ورائه الربح. ولما اتجهت إلى الرصيف المقابل تحت وابل من الصياح الذي انفلت من أصحابه بدون قيد، وسرت في شارع جانبي، كان مرادي، في الواقع، أن أبحث عن «سيبر كافي» لعلي أستطيع قضاء مآربي فيه. الساعة كانت قد تجاوزت الثامنة ليلا بقليل. ألقيت نظرة على واجهة مكتبة (أبي نواس) ثم دلفت إلى الداخل لا أبغي شيئا. أذكر أنني سألت صاحبها عن السيبركافي فأرشدني، بتردد، إلى ناحية نسيت وجهتها الحقيقية مباشرة بعد أن وجدت نفسي في الشارع مرة أخرى. ومن الغريب تماما أن المدينة قرب التاسعة ليلا كانت قد شرعت في الانكفاء على نفسها تماما. هدير ستارة حديدية، لما شدني الصوت، يتدفق مع نزولها المتدافع على إثر حركة منفلتة. قلتُ: ما هذا؟ برد شهر ديسمبر وليله المتهالك هذا؟ يجوز. وأذكر أيضا أنني، وأنا في غرفتي بالفندق، فكرت في رسالة يجب أن أكتبها لحنان الداودي.

بدأت رسالتي الحزينة، بعد أيام فيما أظن، قائلا: «**عزيزتي، لقد عانيت لأيام من ويلات سفر غريب قبلت القيام به طوعا إلى تونس. إنني حزين، بل أريد القول إنني مريض، بل ومحزن مرضي دونما سبب ظاهر أومعروف...**

**إلا ما تشملني به الوحدة من فقر. ولولا تلك الكلمات الحارة التي وصلتني من مريم البدري فأشعرتني بالرفقة لغرقت في اليأس التام من كل شيء»**. وفي نفس الرسالة أشعرتها بأنني راسلت مريم وتحدثت لها (عنك) بنوع من الإحساس الخاص... بهذا كنت أريد، ولو على نحو غامض، معرفة رد فعلها على ما بذر مني. غير أنني لم أجد في رسالتها الجوابية التي وصلتني في اليوم الموالي أي شيء من ذلك. تجنبتْ، كما خمنتُ، كل إشارة، أعني إشارة سابقة للأوان، حتى أدرك مع مرور الوقت أنها لا تستعجل شيئا... ولو أنني كنت أفهم، في معظم الأحيان، أنها تستعجل بالفعل كل شيء.

# قرب النهاية

أقول تستعجل بالفعل كل شيء. بالتأكيد كانت تستعجله. لم يخب ظني ولو أنني لست راء، أو خاب، في الحقيقة، لأنها غادرتني بدون سبب، بدون عتاب، بدون إنذار. أعرف السبب والعتاب وأدرك الإنذار الآن وهو الذي يضع النقطة الختامية على كلمات ستخطها دائما بالفرنسية ولن أقوم بعد اليوم بترجمتها احتجاجا على المعاني الكاشفة. لا تعنيني المعاني الواضحة في أية لغة تقال أو تكتب أو يقلدها المنجمون. ولو أنني كنت أفهم في معظم الأحيان أنها تستعجل كل شيء إلا أنني لم أكن أتصور أنها يمكن أن تقدم على تلك الفعلة... التي بدت لي محملة بالاحتجاج الفوري المزمن غير المتوقع الطافح بالمرارة. حنان الداودي تنتهي هكذا. كنت أعرف من خلال الكتب أن كثيرين قرروا نفس

المصير دون أن يحيطوا علما به أحدا، ولا أعرف في الدوائر القريبة مني من أقدم على ذلك بنفس القسوة والارتجال المنفلت، وأنا نفسي، على كثرة ما فكرت فيه في لحظات اليأس وغياب المعنى، بقيت أجبن واحد يطارده الانتحار حيثما حل وارتحل... حنان الداودي وقفتْ، فيما يبدو، في اللحظة القاتلة وقالت الرحيل الأبدي بدون كلام.

لم أحزن ولم أفرح، لم أراجع شيئا في المسار، القصير أو الطويل، لأنه لم يسر قيد أنملة في واقع الأمر. خجلت من نفسي ومن المراهنات الكثيرة التي تركتها حنان في عهدتي. لم أكتب بل انتشفتُ. ولكنني تركت في هذا العمل شيئا منها رغم أنه لم يكن بيني وبينها إلا الأوهام. شعرت في كثير من مراحل العلاقة المفترضة مع حنان الداودي، كما شرحت ذلك، بنوع من الانجذاب، وتوهمت في هذا الانجذاب كثيرا من التصورات ...غير أنني لم أحقق منها أي شيء في الواقع، ولهذا كان الانتحار مفجعا وأليما بطبيعة الحال. أضيف إلى ذلك أنني كنت أود، في برنامج من التصورات الحالمة، أن أبني مع حنان، لو كتب لي أن أفاتحها في ذلك، تجربة مختلفة عن تلك التي بنيتها مع صديقتها مريم. هذه اندمجت فيها بجميع أشكال الاندماج، وهي نفسها كانت مدركة بأننا نمشي،

لفترة على الأقل، بنفس الخطو الرشيق نحو نهاية ما. جاء التباعد في اللحظة المشتهاة والمستهامة. لم يكن فيه جرح عنيد. أما حنان... مصيبة كيف أشرح ذلك. لم يقم أي اتصال بيني وبينها، وهذا لا يجب أن يعني بأنني لم أكن متصلا بها، راغبا فيها، محافظا على التواصل معها، طامعا في الجلوس إليها وإلى أشياء أخرى دفينة في تكويني النفسي إليها، ولكن.

في رسالتها ليوم 19 ديسمبر، أو على إثر توصلها برسالتي مباشرة، لست أدري، عقّبتْ برغبة أكيدة في البوح على الرسالة الإلكترونية التي وصلتها مني حول الزيارة التي قمت بها إلى تونس... تلك التي ندمت لحالي فيها عندما نفد صبري من الضيق هناك، وأظنها لهذا السبب قالت بداية: (... **نعم المستعارة**..) فلم أفهم للوهلة الأولى مرادها من هذه البداية التي لم تكن واضحة تماما، غير أنني قدرت أنها ربما تستعيد، بطريقتها الخاصة، صيغة من الصيغ التي استخدمتها في الحديث عن الوضعية في تونس، عن شعوري الخاص الذي استبد بي طيلة مقامي هناك. ويبدو لي أن الأمر كان كذلك بالفعل عندما قالت مباشرة: «**أتذكر حدائق بورقيبة المتحركة... أثناء زيارة رسمية: ينهض الناس من نومهم مسبحين لأن الأشجار والورود نبتت فجأة في جميع الأماكن التي كانت من قبل عارية، غير أنها ما تلبث في**

**اليوم الموالي، أمام الاندهاش الذي يأخذ بألبابهم، أن تعود إلى ما كانت عليه. مثلما أذكر كذلك، في تلك الفترة التي كنت فيها على شيء من الإيمان القدري، صعودي الصوفي المندفع نحو المقبرة لملاقاة سيدي الحسن الشاذلي. منظر رائع ومدوخ ما زال يروعني لحد الآن، ولعلي تعاركت مع الحراس لأنهم منعوني من أداء الصلاة في مكان بدا لي مأهولا بالرجال. أعيد قراءة مارسيل بروست هذه الأيام، ويبدو لي أن عباراته الطويلة تذكرني تماما بمثيلاتها التي تجوب في توتر عالم الكتاب الذي أترجمه. .أقبلك»**. وبعد فراغ أقدره بسطرين أو ثلاثة لم أفهم له معنى مضت تقول: **«عزيزي سعد، بعد أن استعدت شيئا من توازني هذا الصباح على إثر الانفعال الذي داهمني في الليل أود أن أبعث إليك شذرات من ديوان غير منشور وسري. في الشعر تذوب كتلة الصمت التي تسكنني. أقبلك بحرارة»**.

هل تكتب الشعر هذه عندما يكون بها مس من حيرة؟ وهل تراها تخلد إلى الصمت إذا ما استبد بها الحزن كباقي النساء الحيارى؟ لا يمكنني أن أتخيل تلك الأوضاع التي تكون فيها قادرة على العطاء، ولا تلك التي تكون فيها فقيرة معدمة. فقيرة معدمة أعني لا تجيز لنفسها أن تتذلل في الرسائل التي قد يفهم منها المرء حقائق كونها البعيد، أو الذي يبدو لي هكذا اليوم بعيدا.

خلتها منذ الديوان الأول لا تكتب الشعر، عندما يستعبدها شيطانه اللعين، إلا في ضيافة الألم. الألم المتكابد الذي استصفى كريم السعداني دون غيره من الرجال وصيره في باريز، في تلك الأيام الشديدة العنف، صرخة تستجدي... شيئا من الصمت أو كثيره في الواقع. ولما لم أجد علاجا للأسئلة التي تنتابني وطنت نفسي إلى شيء مهم: حنان عالم يتحداني، وعلي أن أسير في طريق المعرفة حتى أبلغ شأوها المخابث... كما قلت هامسا فيما يشبه اليأس. الآن مستحيل.

# 10 JANVIER

Une chose qui m'a toujours sauvée face à ce monde, c'est le refus de tout sentiment de culpabilité, une passion tragique oui peut-être mais pas de sentiment et pas de culpabilité, une colère, aussi une révolte contre un mail de photos qui circule...et qui ne sert à rien à mon sens que de dénuder encore plus ces victimes. Je ne sais pas ce que j'ai voulu par ce poème, mais tout ce que je sais, c'est que ces petits trois cadavres que j'ai vu, y vivent, c'est comme les montrer vivants puis morts. Enfin, je sais que la question de la Palestine ne t'est pas étrangère, je le sais, les premiers poèmes que j'ai écrit sont pour elle, mais je ne suis jamais entrée dans cette lutte et n'y adhérerai jamais, pas même par la poésie. Ce que je voulais dire c'est toujours de l'amour, la révolte mais ce n'est pas engagé. Tu sais quoi mon sentiment quand je lis ton mail de ce matin, j'ai l'impression que c'est le livre que je me charge de traduire qui me parle, suis-je dans l'erreur?

...Je t'embrasse, comme je suis c'est-à-dire cheveux ébouriffés, plein du henna d'hier et les yeux à moitié ouverts car je n'ai pas encore pris le café du matin. Et j'attends de t'entendre, je ne serai certainement pas bavarde, (Et tu sais quoi cette nuit j'ai rêvé que nous étions dans une chambre, il y avait un bébé, le tien, Meriam Badri me l'a donné pour m'en occuper, tu étais juste à côté, je l'ai pris dans mes bras, il s'est calmé, tu regardais et puis soudain est arrivée ta femme, habillée en caftan ; elle revenait de la Mecque et elle m'a repris le bébé). C'est grave ce rêve, non ?

أعترف أن مريم البدري روّعتني بالخبر. أشك في أنني احتملته. أما كيف تعاملت معه في وحدتي وأساي فشيء مختلف تماما عن جميع الأخبار التي تنتهي إلينا ناعية أو شادية. لم أحتمل شيئا في حياتي إلا هذا الاحتمال، لأن التي كانت تراسلني في اليوم والآخر، في توال عجيب لم ينقطع، وفيه مسار حياة، وفيه عواطف وكبرياء وأشياء من الانكسارات الوجدانية، وفيه القصص الباعثة على المراوغة، وفيه الشعر الذي كانت أبياته المنسرحة تحترق بفعل اللغة الوقّادة، وفيه وفيه وفيه. أنا الصبر إذا شئنا، لأن الرسائل الأخيرة لم تكن تنبئ بشيء، لم يكن لها أفق ولم يكن في هذا الأفق أي ملمح ولا لمح ولا احتمال. إن التي كانت تراسلني لم تودعني وأبقت على الفراغ وداعا يوم أن كان لها أن ترد على رسالتي. أنا ما زلت، والنعي يلاطمني بقسوة، في انتظار الجواب المستحيل. دليلي في الرسالة الفرنسية التي لم أقدر على ترجمتها حين تسائلني في الحلم عن التأويل، حين تقول لي: ألا ترى معي أن هذا الحلم رهيب؟.

أراه معك ولكنني لا أراه معي ولا أرى تأويلا ولا أرى.

**ملاحظة**

لم تُعْنَ هذه الرواية بالكتاب الذي ترجَمَتْه حنان الداودي، فوجب التنبيه.

أما عن الألم فأقول: لو كنتُ أعرفه لقتلتُه.

© نشر الفنك

91، شارع أنفا - 20060 الدار البيضاء - المغرب
الهاتف : 68 92 20 22 5 / 14 93 20 22 5 212+
النقال : 83 64 89 61 6 212+
البريد الإلكتروني : info@lefennec.com

ردمك : 978-9920-755-00-9
الإيداع القانوني : 2018MO3357

الغلاف : محمد ياسين قدراوي
تصميم : Ouragan communication

مطبعة : Direct Print
الطبعة الأولى
أكتوبر 2018

wwww.lefennec.com

# بُستان السيّدة

رواية

عبد القادر الشاوي

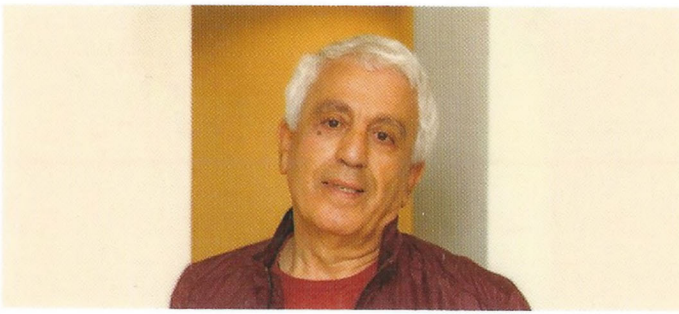



لم يكن الانتحار قدرا حتميا في أيام حنان الداودي، ولكن حياتها الشخصية المتقلبة، طورا في تجربة أليمة أسكنَتْها في الأوهام فاعتصرت قلبها، وطورا أخر في علاقة شبه عاطفية مفترضة ومُلغزة بالتأكيد، أنهت مشوارها الإنساني، فجأة، على شيء كثير من الغموض المَحيط بها. وفي هذه الرواية سبر لهذا (العالم) من خلال تبادل الرسائل النصية بين سارد توهم العلاقة واللقاء وشخصية قلقة على وشك الاعتراف بالحب، أما القاسم المشترك في النص على الصعيد الإنساني فكامن في الهشاشة التي تخذل العواطف وتهدّدها باليأس.

عبد القادر الشاوي
روائي وباحث، له عدة مؤلفات منشورة حول قضايا الثقافة والفكر في المغرب وعلى الصعيد العربي.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

30 DH/ 5 €

ÉDITIONS
LE FENNEC
دار الفنك للنشر
www.lefennec.com

9 789920 755009